شاعر الأولياء

الشيخ
علي عقيل
رضي الله عنه

تأليف
حسن كامل الملطاوي
وكيل وزارة الخزانة السابق

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

(يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً)

[قرآن كريم]

* * *

(إن من الشعر لحكمة)٠

[حديث شريف]

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للأستاذ الأديب الشاعر محمد جاد الرب

المفتش السابق بوزارة التربية

لعل الشعر بمعناه المراد بهذه التسمية من أجل وأسمى الفنون الجميلة إذا لم يكن أجلها واسماها جميعا ، فهو المترجم الأمين للعواطف الإنسانية السامية ، والمعبر الصادق عن الوجدانيات الخافية فتبدو فى أجمل صورها وأبهى حللها .

والعهد بالشعر العربى الأصيل أنه فن دقيق المسالك صعب المراس ، محتاج إلى شىء من المعاناه والجهد لمن يتطلع إلى الإجادة فيه مهما بلغ الشاعر من صفاء الطبع وسعة الخيال ورسوخ القدم فى اللغة والأدب ؛ ذلك لأنه مصبوب فى قالب الوزن والقافية مقيد بهما ، حتى الألفاظ نفسها منها مالا يستحسن فى الشعر وإن حسن فى النثر ، يعرف ذلك أهل البصر بالشعر ، ومن لهم ذوق شعرى سليم .

وليس العلم بالوزن والقافية مدخلا للشعر وطريقا إليه ، فالشعر فن ، والفن شىء والعلم شىء آخر ، وواضع أسس هذا العلم (الخليل بن أحمد) لم يعرف عنه أنه قال شعرا قط ، وقد سئل فى ذلك فقال : (إنى كالمسن أشحذ ولا أقطع) .

وقد أردت بالشعر العربى الأصيل ذلك الفن المقيد بالوزن والقافية والمعانى السامية كما ورثناه عن أسلافنا العرب الذين كانوا يعتزون وبمن نبغ فيه يتباهون وفى تجويده والسبق فيه يتنافسون ، حتى لقد كانت القبيلة التى تنتج شاعرا يتوافد عليها القبائل ورؤساؤها مهنئين ، وإنى بذاك أحترز من الشعر الجديد الذى يسمى

حينا حرا وحينا حديثا ، لأنه تمرد على الوزن والقافية تشبها بالشعر الغربى فى بعض خصائصه ، وأنى على كثرة ما قرأت منه لم أجد فيه شيئا من المتعة الذهنية ولا الموسيقى اللفظية أو المعنوية ، وهما بعض سمات شعرنا الأصيل ، وهدف الشاعر من وراء اختياره الشعر وهو مركب صعب ، على النثر وهو طيع ذلول ، ولا أدرى لانصراف بعض المتأدبين إلى هذا الشعر المتحرر سببا ، أهو العجز ؟ أم الرغبة فى التجديد أيا كان هذا الجديد ؟ وهو عندى على كل حال لا هو شعر ولا هو نثر ولا أدرى ماذا يكون ولا ماذا يسمى !!

ويروى لنا التاريخ أسماء شعراء كانوا يعكفون على تجويد شعرهم الأيام الطوال ومنهم من كان لا يقول الشعر إلا فى زمن معين فى ليل أو نهار ، ومنهم من كان يقول : يأتى على وقت فيه قلع ضرس أهون من بيت شعر ، ومنهم من كانت تستغرق القصيدة منه عاما كاملا تأليفا وتنقيحا فسميت قصائده بالحوليات ، كان يفعل ذلك (زهير بن أبى سلمى) على براعته وعراقة نسبه فى الشعر ، فهو شاعر ، وأبوه شاعر ، وله خال شاعر ، وابناه كعب وبجير شاعران ، وأختاه سلمى والخنساء شاعرتان .

وإذا كان يروى أن بعض الشعراء الأقدمين يرتجلون فإنهم لم يسلموا من خلل فى الوزن أو عيب فى القافية (كما اختل فى وزن القريض عبيد) ، وكان رواتهم يقومون ما يقع لشعرائهم من خلل أو عيب ، وقد يزيدون ما يحلو لهم زيادته من الأبيات أو يحذفون مالا يروقهم مما تسببه البديهة والارتجال .

فإذا رأينا شاعرا يرتجل مبتدئا أو معارضا ما يقترح عليه من قصائد بميزان مضبوط وقافية واحدة فى معان صوفية لطيفة شفافة وألفاظ سهلة هفهافة فذلك لاشك نوع من الإلهام كذلك الذى سمعناه ورأيناه شعر الرجل الروحانى (الشيخ على عقل) من أبطال الطريقة الخليلية ، ومن شعره المرتجل قصيدة صوفية طويلة نجتزئ منها هذه الأبيات :

شراب الحب يعرف بالمذاق وما كل السقاه له بساق
دعاة الحب أكثر ما تلاقى وقل الصادقون فما تلاقى
وليس أخا غرام من مناه لقاء الغيد أو كأس دهاق
وليس بعاشق من لا تراه من الشهوات طهر والنفاق
ألا يا ساقى العشاق مهلا تعال املأ كئوسك من حقاقى
غرامى قد مزجت به رجائى على خوف فمن خوفى مذاقى
ومن عرف المحبة عن يقين محال أن يميل إلى فراق

ومن معارضاته على البديهة ، وقد اقترح عليه بعض الناس أن يعارض القصيدة المشهورة :

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

فينطلق من فوره معارضا بقصيدة طويلة ، منها :

ياليل الصب متى غده لمريض ملت عوده
ما كان هواى لغانيه أو كان لظبى أعهده
بل لاسم وفى أسم اللـــــه وبأسم الله أوحده
فإليه هواى وفيه منا ى ومنه عطائى أشهده

إلى أن قال :

فمتى القاه وبى شغف أقيام الساعة موعده

ولقد كانت لى مع الشيخ تجربة حين كنت طالبا ناشئا أغرمت بالشعر ، رواية وصياغة ، وكنت قد سمعت عن عجائب الرجل فدفعنى حب الاستطلاع إلى الذهاب إليه ، وقد وجدت ما سمعت حقا .

وقد وفق الله صديقى العالم الصوفى الكبير الأستاذ حسن كامل الملطاوى الذى

لازم الشيخ قرابة عشرين عاما ، وبما أوتى من قوة نادرة فى الحافظة والذاكرة ، أن يحفظ للشيخ ويكتب الشىء الكثير ، كتب عنه منذ نحو أربعين عاما ، وها هو ذا اليوم ينشر له ما روى وما حفظ عنه هذه الرسالة الجديدة بدافع البر والوفاء وسماها (شاعر الأولياء) .

ومن قبل جمع ما تيسر له تدوينه من هذه الإلهامات فى كتاب (السمو الروحى) فى الأدب الصوفى صديقى العارف بالله السيد عبد المنعم الحلوانى ابن ولى الله السيد عبد السلام الحلوانى من أعلام خلفاء الطريقة الخليلية لرائدها القطب الكبير سيدى الشيخ محمد أبى خليل نور الله ضريحه .

ولكل من الصديقين منهاجه فى التدوين ، وقد وفقنا فيما صنعا غاية التوفيق وبرا بالشيخ أعظم البر ، فجزاهما الله عن وفائهما وبرهما خير الجزاء ، ورضى الله عن الجميع ، ونفع ببركاتهم ، وهدى بهم إلى سواء السبيل ونهج الطريق ، وبالله التوفيق .

وبعد ، فأنى أرجو الله جل وعلا أن يوفقنى إلى خير ما عاهدونى عليه ، فإنه لا خير إلا من يديه ، وهو منه وإليه .

إذا لم يكن لى عزمهم وجهادهم فإنى بهم صب وفيهم متيم
وإن ضاق خطوى عن لحاقى بركبهم فإنى على آثارهم أترسم
ومن يعتزم عبر الطريق فإنه سيُهْدَى إلى سر الطريق ويلهم
ولا بد للسارى وإن كان وانيا إذا صح عزما أنه يتقدم

محمد جاد الرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

الحمد لله ، خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على أبلغ البلغاء ، وأفصح الفصحاء سيدنا ومولانا محمد الذى أنزل عليه القرآن الكريم ببيانه المعجز ، وأوتى جوامع الكلم ، ورضى الله عن آله وصحبه ، الذين جعل الله الحق على قلوبهم وألسنتهم ، وعمن والاهم بإحسان من أهل الإيمان ، وفى طليعتهم أولياؤه المتقون وأصفياؤه المكرمون ، الذين أرشدوا إلى الله تعالى بالقول والفعل ، فكان فى قولهم الحكمة البالغة ، وفى فعلهم الأسوة الحسنة لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا .

وبعد :

فلا تظنن أيها القارىء العزيز أنك تقرأ فى هذه الرسالة شعر شاعر ممن أعمل فكره فى شعره ، وأعطى نفسه الوقت الكافى لتنقيح لفظه ، أو تهذيب نظمه على أصول الفن أو قواعد البلاغة ، لكنك ستقرأ شعرا ملك من صاحبه الوجدان وتغلغل فى فؤاده ، فجرى على لسانه إلهاما وارتجالا لوقته ، وتدفق كما يتدفق العذب الفرات من عيونه الجارية ، وينابيعه الراوية ، وعلى خلاف ما عهده الناس فى أهل الشعر ، من مجيئه حينا وانقطاعه أحيانا ، وعى خلاف ما عرفه الناس من أغراض الشعر ، فلم يكن شعره فى الوصف أو الهجاء أو المدح أو الرثاء ، بل كان فى ساحة الملكوت مشوقا إلى الله ورسوله ، وداعيا إلى الخير ، وآمر بالمعروف ، وناهيا عن المنكر .

ولا عجب أن يكون عنوان الرسالة (شاعر الأولياء) فسترى مم تقرأ من شعره أنه شاعر الأولياء ، وولى الشعراء ، فقد دندن بشعره فى وادى الروح ، وفى

العالم الأسنى ، فكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وقد استثناهم الله من الشعراء الذين هم فى كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون ، وكيف لا وقد دعا إلى الله على بصيرة ، فكان الشاعر الذى سحر ، والساحر الذى شعر ، وكان فيما وجه الناس إليه ، الربانى الذى شعر ، والشاعر الذى ربى ، وسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

ولقد سمعته لأول مرة منذ أربعين عاما ، فشعرت حين سمعته بدبيب كدبيب النمل فى جسدى ، فكان لشعره أثر روح فى روح ، لا أثر شعر فى أذن سامع ، وكان ذلك فى ذكرى مولد السيدة الطاهرة زينب بنت الإمام على رضى الله عنهما وعن سائر سادتى أهل البيت ، وتلك كانت من بركاتها التى غمرتنى بها طول حياتى ، وما إن فرغ شاعر الأولياء آنئذ من إنشاده حتى هرع الناس للسلام عليه ، والتبرك به ، وكنت فيمن سلموا عليه ، فشد على يدى من دونهم ، وهو كفيف البصر ، وقال : من ؟ فقلت : حسن ، فقال : من أى بلد ياسيد حسن ؟ قلت : من مغاغه ، فقال مازحا معى : آده ، مشيرا إلى لغة بلدنا حيث يقولون بالعامية (آده) بدلا من (ايه ده) التى يقولها أهل القاهرة .

وعجبت ليلتها من هذه اللفتة التى كانت له معى ، وقلت فى نفسى : سيكون لى شأن مع هذا الرجل ، وهو ما كان بحمد الله تعالى ، كما ستعلم بعد قليل .

وتتبعته بعد ذلك فى الليالى التالية ، فوجدته حاضا بشعره على الفضيلة وناهيا عن الرذيلة ، يغرد فى المحبة الإلهية حينا ، وينقلنا إلى يوم القيامة حينا ، وآناً يقف بنا على باب الرجاء ، وآناً يقف بنا على باب الخوف ، ومرة يذيقنا حلاوة الإيمان ، وأخرى يحذرنا من فتنة النفس والشيطان ، ويصف لنا النفس الأمارة ، ويرشدنا إلى جهادها ، ويحضنا على الطاعة ، واستنهاض الهمة فى طلب الله ، والتزام شرع الله ، وإثار الله تعالى على كل ما سواه ، حتى ننال رضاه وذلك أكمل الغايات ، وأسعد النهايات .

وكثيرا ما تحداه الناس ، واختبروه ليروا بأنفسهم أن شعره من إلهامه الفورى وليس بالشعر المقول على روية وتفكير ، فكانوا يطلبون إليه تخميس بعض الأبيات أو تشطيرها ، أو الإتيان بقصيدة كاملة على وزنها وروَّيها ، فكان يأتيهم بالعجب العاجب الذى لا يحاكى ولا يغالب ، حتى كأنه أمهل فيه ، وفكر وأطال التفكير ، فأيقنوا أن ذلك لا يكون إلا بعطاء الله لأوليائه ، كرامة لهم ، وتأييدا لصدق دعوتهم ، فينتفع السامعون بهذه الآية ، ويتجهون بأرواحهم إلى ساحة القدس ، ويتخلصون من كدورات النفس .

وكم فتح الله تعالى بشعره أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب .

فإن شئت فقل إنه شاعر سماوى ، وعالم ربانى ، وإمام صوفى ، وعارف نقى ، وفقيه نقى ، وشيخ صفى .

وستعلم نبأه مفصلا فى ختام الرسالة إن شاء الله

* * *

وقد وفقنى الله فسجلت بيدى استماعا منه بعض ما قال ، ورددت شعره فى المجالس والمحافل ، ولم يسبقنى بذلك سابق ، وكنت أمزح معه وأقول له : لكل شاعر راو ، وشاء الله ان أكون راويك ! !

ثم كتب له أخواى فى الله تعالى المرحومان السيدان كامل عبود وابنه كمال عبود (مدرسان من كفر طهرمس – جيزة) رحمهما الله ، وكنت قد وجهتهما للكتابة بعد أن بدت لى رغبة من سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى فى موالاة الكتابة .

وقد جمع ما تيسر من شعره مما كتبناه عنه فى ديوان (السمو الروحى فى

الأدب الصوفى) أستاذنا العارف بالله السيد (أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى) مد الله فى عمره ، وبارك فى عمله ، (وهو أكبر أبناء شيخى العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى وخليفته من بعده) .

ولم أقصد من رسالتى هذه أن أعيد طبع الديوان ، إنما قصدت ان أعرض عينات من شعره فى المقامات المختلفة ، مقارنا عند الأقتضاء بما قاله بعض الفحول من شعراء الصوفية مع ما تيسر لى من شرح ، فيرى القارىء الكريم فضل الله بارزا على هذه الأمة المحمدية التى شبهها حبيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمطر فى بركتها ، وقال : لا يدرى اوله خير ام آخره ، وهذا ما يتيح للمطلع أن يتنزه فى رياض الحكمة ، ويشم عبير الجنة ، فيعمل بعمل أهلها ، فيرى قى البيان العيان الذى يغنيه عن الدليل والبرهان ، فيشهد بنفسه أن السادة الصوفية هم عباد الرحمن الذين آتاهم الله صفوة البيان ليغزوا به القلوب دون إنذار أو استئذان .

وقد تتلمذت على الشيخ رحمه الله ، فرأيته أول ما رأيته شاعر الأولياء ثم رأيته آخر ما رأيته ولى العلماء ، وكبير الفقهاء ، فكان لى من شعره الحكمة ، ومن فقهه العلم ، ورأيت من حقه على أن أنشر فضله بين الناس لينتفعوا بمواهبه فى تقوية إيمانهم كما انتفعت ، ويسلكوا دربه كما سلكت .

وسيأتيك ذلك مفصلا فى ترجمته بإذن الله .

ولئن كان – طيب الله ثراه – قد انتقل إلى رضوان الله فى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٨ ودفن بالأسكندرية ، بقرافة المنارة ، فقد بقى فينا بحكمته ، وعلمه ، وفضله .

وصدق إمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه إذ يقول :

(هلـــك خـــزان الأمـــوال وهـــم أحيـــاء ، والعلمـــاء بـــاقون الـــدهر ، أعيـــانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة) .

وآن لـــى أن أنقلـــك إلـــى بســـاتين الشـــعر الناضـــرة ، لتتمتـــع بجمالهـــا ، وتقطـــف مـــن ثمارهـا وهـى يانعـة ، فتتغـذى بهـا سـمعا وقلبـا وروحـا ، فتحـرك ببيانهـا نحـو وجـدانك ، فلـيس للمـؤمن بعـد الله غايـة ، ولـيس لـه غيـره فـى البدايـة والنهايـة ، ومـا تـوفيقى إلا بـالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المؤلف

الغناء فى محبة الله تعالى :

عاش معنا شاعر الأولياء على هذه الأرض ، فى عالم الملك الفانى المحدود ، ولكنه جال بشعره فى عالم الملكوت الخالد ، فحرك منا الساكن ، ونبه الغافل ، ونشط الخامل .

شهد ربه بعين يقينه ، فرأينا له همة خارقة فى الطاعات والمجاهدات ، ورأينا فيه صورة رائعة لاجتماع الملك والملكوت فى المؤمن القوى ، وقد أحب بكلياته وجزئياته ربه ، وفنى بذا الحب حتى عن نفسه التى بين جنبيه ، فكان له من هذا الفناء الخلود بين المحبين الذين آثروا الله على كل شىء فآثرهم الله على كل شىء .

فاستمع إليه حين يقول :

وإننى أنا فان فى محبته ... لكننى فى كتاب الحب موجود
أطوف وحدى بقلبى وهو يَرْجِعنى ... والرجع بعد الفنا علم وتوحيد
ما لذ لى غير شدوى فى مواهبه ... وإنما أنا مشهود وموعد
سارع إلى الله معتزا برحمته ... فالكل عبد ورب الكل معبود

العبودية والربوبية :

أرأيت كيف عرف نفسه بذل العبودية ، فعرف ربه بعز الربوبية ، فذاق معنى قوله تعالى فى فاتحة الكتاب (إياك نعبد) وإذا تم الخضوع لله ، فقد تحرر العبد من الخضوع لغيره ، ومن ثم لم يدخر مجهودا إلا بذلة فى مرضاة ربه ، فكان على قدم رسوله الأكرم ، صلى الله عليه وسلم ، الذى قال له تعالى : (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) .

دعاة الحب :

ويرى شاعر الأولياء أن أكثر الناس يَدْعون إلى محبة الله حرفة وصناعة دون أن يذوقوا طعم المحبة فى أنفسهم ، فلم تنفذ دعونهم إلى قلوب تابعيهم ، لذلك يقول رضى الله عنه :

شراب الحب يعرف بالمذاق وما كل السقاه له بساق
دعاة الحب أكثر ما تلاقى وقل الصادقون فما تلاقى

ثم يبين رضى الله عنه أن الشهوات هى التى تحجب العبد عن محبة ربه ، فوجب على المحب الصادق أن يتطهر منها ومن النفاق فيقول :

وليس أخا غرام من مناه لقاء الغيد أو كأس دهاقى
وليس بعاشق من لا تراه من الشهوات طهر والنفاق

ثم دلنا رضى الله عنه على سبيل السلوك إلى الله ، هى ترك الاشتغال بالخلائق ، والتمسك بالخالق ، لأن الاشتغال بالخلائق اشتغال بالفانى ، والاشتغال بالخالق ، سبحانه ، تعلق بالباقى الذى لا يفنى ولا يزول ، فقال :

تركت جميع خلق الله دونى شغلت عن الخلائق بإشتياقى
إذا ما عشت لا أنسى إلهى به أسمو من الأخرى المراقى
أحب الله عن أدب وصدق ولا أرضى سوى التقوى خلاقى
يعز على ترك الحب عندى ولو بلغت بى الروح التراقى

وهو لا يبخل بما حباه الله من المحبة ، بل يدعو سقاه الحب أن ينقلوا عنه الناس المحبة الممزوجة بالرجاء والخوف ، فيقول رضى الله عنه :

ألا يا ساقى العشاق مهلا تعالى املأ كؤوسك من حقاقى

غرامى قد مزجت به رجائى على خوف فمن خوفى مذاقى[١]
وروحى أدركت معنى التجلى فمنه أرى اصطباحى واغتباقى[٢]

ويتمسك شاعر الأولياء بالمحبة ، ويعلل تمسكه بها بأن الله هو الباقى بعد فناء خلقه ، فهو الذى يستحق وحده أن يكون محبوبا ، فيقول :

ومن عرف المحبة عن يقين محال أن يميل إلى فراق
وكيف أحب غير الله يوما وليس سواه فى الأكوان باقى

عقبة النفس :

ابتلى الله سبحانه عبده ، فركب فيه نفسا أمارة بالسوء ، ونهاه عن هواها ، وبذلك صار فى وضع صعب دقيق ، فإما أن يرضى نفسه فى هواها ، فترديه فى مهاويها ، وإما أن يجاهدها جهادا كبيرا ومريرا ، فيرضى ربه سبحانه فى أوامره ونواهيه ، فيصبر على مشقات العبادات ، وعلى مجاهدات الشهوات .

وحين جاهد السابقون الأولون أنفسهم فى الله تعالى ، سادوا الأمم ودان لهم العرب والعجم ، ثم ما لبث الخلف من بعدهم أن جنحوا إلى الشهوات واستناموا إلى الغفلات ، فقصروا فى الطاعات ، واجترحوا السيئات ، فوهنت عزائمهم ، وخمد تفكيرهم فى أمر الآخرة ، فلم يبق للمسلمين ذلك المجتمع الصالح الذى هز بمثله العليا المشارق والمغارب ، وصار الدين شكلا لا روح فيه فتعادى المسلمون وكانوا متحابين ، وتفرقوا وكانوا مجتمعين .

---

[١] الاصطباح : الشرب فى وقت الصباح .
[٢] الاغتباق : الشرب فى وقت المساء .

ويبين ذلك واضحا مما يقوله متحسرا المغفور له السيد (محمد إقبال) شاعر الباكستان العظيم ، فيما ترجمه عنه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان وذلك فى قصيدته المشهورة (جواب شكوى) :

أرى التفكير أدركه خمول ولم تبق العزائم فى اشتغال
وأصبح وعظكم من غير سحر ولا نور يطل من المقال
وعند الناس فلسفة وفكر ولكن أين تلقين الغزالى
وجلجلة الأذان بكل أرض ولكن أين صوت من بلال
منائركم علت فى كل جو ومسجدكم من العباد خالى

ويكشف لنا إقبال عن ما صرنا إليه ، فيقول . إن ضعف الروح إنما جاءتنا من اقتراف الذنوب والخطايا ، واغتياب الخلق ، حتى الصالحين منهم ، وإلى ترك التأسى بأسلافنا الصالحين الذين بذلوا النفس والنفيس فى مرضاة الله تعالى ، فيقول طيب الله ثراه :

لأى مآثر انتسبتم لتكسبوا فخار المسلمينا
فأين مقام ذى النورين[١] منكم ودولة عزه ، دنيا ودينا
وفقر على الأوب هلا ربحتم فيه كنز[٢] الفاتحينا

أقمتم فى الذنوب وفى الخطايا وتغتابون حتى الصالحينا
وهم ستروا عيوب الخلق فضلا وإن كانوا أبر المتقينا

ثم يشيد إقبال –رحمة الله – بهمة أسلافنا الصالحين فى مرضاة رب العالمين ، ويندد بشبابنا الخاملين ، ويردد ضعفهم وخمولهم إلى الأفكار الخاطئة وظنهم السيء بالدين ، وإلى اشتغالهم بالملاهى عن موارد الإيمان فيقول :

يعيد الكون قصتهم حديثا وينشىء من حديثهم الفنونا
فكم نزحوا عن الأوطان شوقا إلى التحلق فوق العالمينا
ويأس شبابكم أدمى خطاهم فظنوا فيه بالدين الظنونا
هى المدينة الحمقاء ألقت بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صنعت لهم صم الملاهى لتحجب عنهم الحرم الأمينا

ثم يقول إقبال فى أثر الداعين إلى الله والمذكرين به ، وكان رحمة الله فى طليعتهم :

أعد من مشرق التوحيد نورا يتم به اتحاد العالمينا
وأنت العطر فى روض المعالى فكيف تعيش محتبسا دفينا
وأنت نسيمة فاحمل شذاه ولا تحمل غبار الخاملينا
وأرسل شعلة الإيمان شمسا وصغ من ذرة جيلا حصينا
وكن فى قمة الطوفان موجا ومزناً يمطر الغيث الهتونا

شاعر الأولياء والأوصاف المتقدمة:

وقد كان شاعر الأولياء متصفا بالأوصاف التى جمعتها الأبيات المتقدمة فكان المطر والنسيم والموج والسحاب ، وإليك بعض ما نقلناه من إلهامه فى آفات المسلمين فى عصرنا :

نحن وأسلافنا :

سأله الأستاذ عبد الحميد أحمد الملطاوى مراقب عام الميزانية ، وكان حينئذ طالبا بكلية التجارة ، أن يأتى له بقصيدة على وزن البيت الآتى وقافيته :

مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى

ويتلــو كتابا كالمجرة نيرا

فأجاب توا :

(مدحت رسول الله إذ جاء بالهدى)

وهذب بالإسلام نفسى وطهرا

أفاض على الدنيا السماحة والندى وطاف عليها نفسى وطهرا

وشابهت الأرض السماء وضاءة ألم تر أن الكون بالوحى نورا

ورفت بها الأرواح كالروض تزدهى

صفاء من الإيمان بالحق أثمرا

قلن تعبد الأصنام بعد ((محمد)) أتعبد والقرآن منه تفجرا ؟ ؟

وبدد عنا الجهل ، والجهل خسة وشرفنا التوحيد سرا ومظهرا

فيا أمة الإسلام ماذا أصابكـم أترضون للإسلام أن يتأخرا ؟ ؟

تركتم حدود الله وهى سلامـة وأهملتمو آثار من هذبوا الورى

وفيكم كتاب الله يشرق آيـة وفى حكمه منجى ، وفى هديه قرى

زعمتم بأن الغرب فجر حضارة وما الغرب إلا بالمآتم قد جرى

أباح الربا جهرا ، وما حرم الزنا وقد حلل الصهباء واستعمر الورى

إذا نحن قلنا ليس فى الغرب حكمة تقولون لولا الغرب لن نتحصرا

أرى الغرب لو كانت حروبه لما جال فى أفيائنا وتبخترا

وما هتفت بالحرب يوما ديارنا ولا شهرت سيفا ولا حشرت قرى
وليت بنى قومى أقاموا على الهدى وكانوا كأسلاف لهم حكموا الشرى
ولم يجعلوا التقليد فجر حياتهم ولم يرتدوا اللذات تاجا ومئزرا
وكانوا رجالا يحسنون أمورهم ولا حقروا قوميه لن تحقرا
وليس بحر من يصافى عدوه ويطلب منه العون إن طارىء طرا

* * *

دع الغرب ، إن الغرب بالشر طافح
على ذله أذكى الحروب وسعـرا
رزقتم من القرآن كل فضيلة ولكنكم أهملتمو الفضـل فجرا
وأولتم الأحكام تأويـل جاهل ولن يلبس الثوب الذى قد تغيرا
ألم تر أن الثوب لو ضاع لونه تضجر منه لابس ، وتضـررا
ولو نحن آثرنا الملاهى على الهدى لقلتم علينا : سـادة فضلوا الورى
سعيتم إلى دار التصاوير أمـة وسابقت الغادات تزدان منظرا
وقد غصت الحانات وأزدحمت بكم سكارى ، وبيت الله أصبح مقفرا
فوالله لا نرقى إلى أوج العلـى ولن نرزق النصر الذى قد تأخرا
سوى باتباع الشرع فالشرع عزنا ونحن بهذا الشرع لن نتقهقرا
فتذكر عهد الأقدمين ومجدهم هدى الناس كانوا للحضارة مصدرا
وتذكر خير الخلق يهدى نفوسنا (ويتلو كتابا كالمجرة نيـرا)

الصوفية والوطنية :

وأبياتــه المتقدمــة كمــا تراهــا تنفــى عــن الســادة الصــوفية مــا ينســب إلــيهم زورا مــن اعتـزال المجتمـع وتخلـيهم عـن مسـئوليتهم نحـوه ، فكمـا غـار ((شـاعر الأوليـاء)) علـى

حرمات الدين غار على قوميته ، ونهى عن تقليد الأجانب ، أو الانحياز إليهم ، أو الاستعانة بهم ومصادفتهم ، وأوضح أن كل ذلك يتعارض مع حرية المسلم التى يجب أن يتمسك بها ويعتز ، وأبياته التالية تتعرض بتوسيع لمعايب المجتمع الإسلامى التى أضرت به فى دينه ودنياه .

معايب المسلمين اليوم :

وسأله الأستاذ عبد الحميد أحمد الملطاوى مرة أخرى أن يأتى له بقصيدة على وزن البيتين الآتيين وقافيتهما :

مررت على المروءة وهى تبكى ... فقلت علام تنتحب الفتاة

فقالت كيف لا أبكى وأهلى ... جميعا دون خلق الله ماتوا

فقال شاعر الأولياء على الفور :

(مررت على المروءة وهى تبكى) ... فقد قلت من الدنيا الهداه

وإن مروءة من غير دين ... ضلال لا تقول به الثقات

وأى مروءة والنيل يبكى ... لفقد الدين ليس له سمات

تركنا حد مولانا وراء ... تنازعنا بذاك النازعات

وقلدنا سوانا عن ضلال ... وقد لعبت بأكثرنا الغواة

انبنى الدور من أجل الملاهى ... وهاتيك المساجد خاويات ؟؟ وكم يلقى

الفساد بنا احتراما ... وأهل الحق فى الدنيا موات

إذا وعظ الورى الوعاظ يوما ... فتسخر بالكلام الناشئات

مجلات تثير لنا فسادا ... غوان فى الصحائف عاريات

يسر بها الشباب ويقتنيها ... ولا يؤتى الوضوء ولا الصلاة

وأوراق الملاهى فى انتشار بيوت بالملاهى عامرات
وكم رمضان نحييه بإثم لياليه بلهو ساهرات
نحج البيت روادا ولكن قلوب بعد ذاك مخربات
وكم ذا ندعى نعطى زكاة وليس لنا مع المولى زكاة
تبيع ونشترى لكن حراما وأبواب الحلال معطلات
وكم يفشو الربا فينا جهارا وتعجبنا الفتاوى الفاسدات

* * *

محاكمنا قد امتلأت نساء وهل ترضى بكثرتها القضاة
وأخلاق تمزق كل يوم ثياب بالضلال مرقعات
وكم داع إلى التقوى افتخارا وليس له مع التقوى صلات
وكم كثر الكلام على البرايا وضل العقل إذ ضل الثبات
طباع الناس أمست كالأفاعى فألينها ملامس لازعات
وأهل الحق قد كتبوا وأوذوا وأهل الزيغ فى صلف دعاة
لذاك أرى المروءة فى انتحاب فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكى وأهلى عدمتهمو فكلهم شتات
وأمسى حبهم ميتا ومما أجمعهم فهم قوم رفات
وإن أنصحهم خلوا سبيلى أأنصح من تولتهم الوفاة
أقول لهم حدود الله فيكم يقال تأخرت قبحت صفات
وإن قلت احكموا بالدين يوما يقال ضللتمو أين القضاة
وأهل المال فى جهل تساموا وأهل العلم ليس لهم حياة
إذا زمن فقدنا الدين فيه فأيام السعادة ذاهبات
أفتش لا أرى أهلى أمامى (جميعا دون خلق الله ماتوا)

النفس الأمارة :

يرى شاعر الأولياء أن عيب الإنسان كامن فى نفسه الأمارة ، التى تزين له القبيح لترضى شهوتها ، وتستحب العاجل على الآجل ، فلا تعمل لآخرنها ، ولو أنها رشدت لأعدت ليوم الحساب عدته حتى يفوز صاحبها مع الفائزين ، فاستمع إليه كيف يصورها فى نزواتها ونزغانها بأبسط أسلوب وأروعه .

سأله سائل أن يأتى له بقصيدة على وزن البيت التالى وقافيته :

عجبا لها تهوى الذى تهوى به دون الذى تعلو به فى ذاتها

فأجاب فورا :

(عجبا لها تهوى الذى تهوى به)

كم عالم زل من نزعاتها

تنأى عن الإصلاح طول حياتها وتواصل الإقبال فى شهواتها

تدعى لتأديبه الصلاة وإنما شغلت بغير الله حين صلاتها

وقفت على الدينار حسن بلائها فأمالها عن هديها وهداتها

قد رحيت بالسيئات مريضة وتضج إن دعيت إلى حسناتها

والنفس أعدى صاحب تبلى به قد أدخلتنا النار من رغباتها

إن أنت تنصحها تضل طريقها وإذا تركت غرقت فى حسراتها

جهلت طريق الخير وادعت الهدى

كم تكثر الدعوى على قرباتها

ضحكت على جهالها فتوهموا أن العلا والفوز فى نزواتها

طنوا بنفسهموا الكمال وإنما تتوافق الجهلاء فى غاياتها

فنحا مسيلمة النبوة وانتهى فرعون للتألية من عثراتها

والنفس ما برحت تضل وما بها نور يريح النفس من ظلماتها
فانصح لنفسك فى الأمور لعلها قد ترزق الأنوار فى سبحاته
ترضى تسفلها لكل نقيصة (دون الذى تعلو به فى ذاتها)

أرأيت كيف صور اشتغال النفس بدنياها دون أخراها ، فأعماها الدينار عن طريق الحق ، فضلت سواء السبيل ، فلم تسمع وعظ الواعظين ، ولم يكن لها عناية بشأن الدين ، وذلك الخسران المبين

وحقا ما يقول شاعر الأولياء :

وقفت على الدينار حسن بلائها فأمالها عن هديها وهداتها

ولا يفهم القارىء الكريم أن الدين ينهى المؤمن عن كسب عيشه ، بل هو يحض على كسب العيش من حلال ، ولكنه يجعل كسب العيش وسيلة لحياة البدن ، ولا يجعله غاية يستحل فيها المؤمن الحرام ليزداد غنى من طريق باطل لا يرضاه الله سبحانه وتعالى .

كما أن الدين يحض المؤمن على السعى للآخرة التى هى خير له وأبقى ، فيكون ممن صلحوا للدنيا والدين ، فلم تشغلهم دنياهم عن أخراهم ، ولا أخراهم عن دنياهم ، فقال فى وصفهم جل شأنه : (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب).

وها أنت قد رأيت فى الأبيات السابقة أن شاعر الأولياء يرجو للمؤمنين أن يراعوا الحلال فى بيعهم وشرائهم وألا يعطلوا حدود الله فيقول :

نبيع ونشترى لكن حراما وأبواب الحلال معطلات

وكم يفشوا الربا فينا جهارا وتعجبنا الفتاوى الفاسدات

ابن عطا الله ومخالفة النفس :

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه :

النفس مجبولة على سوء الادب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المخالفة ، فمن أطلق عنانها ، فهو شريكها فى فسادها ، وردها يتم بالمجاهدة والورع .

شاعر الأولياء وقتل هوى النفس :

وقد خالف شاعر الأولياء نفسه بعنف حتى قتل هواها ، فلم تعد له قائمة عنده فتمت له التخلية – كما يقول السادة الصوفية – فلبست روحه ثوب التحلية التى لا تكون إلا بعد التخلية ، فيقول رضى الله عنه فى روعة من البيان :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفس

وجافيت أنسى فانحدرت إلى الأنس

ومن قوله المتقدم الذى أجمل فيه شاعر الأولياء اية التصوف ونهايته ، نعلم أنه لا تصوف بغير قتل هوى النفس الذى يحض عليه القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى) وقوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)

ويرى السادة الصوفية فى الاية الأخيرة ، أن الجنتين هما جنة فى الدنيا وجنة فى الآخرة ، أما جنة الدنيا فهى جنة المعرفة ، وأما جنة الآخرة فهى جنة الزخرفة .

فإذا عرف المؤمن ربه فى الدنيا بمذاقه وإحساسه ، أنس به فى سره ، وعلانيته ، فهام فى مشهد قدسه ، وفى ذلك السعادة الحقة ، لذلك يقول شاعر الأولياء :

ولم ابد أمرى للعباد فطالما كتمت الذى ألقى عن الجن والإنس
وأدركت بالوجدان سر أحبتى وعانيت آيات اليقين بلا لبس
وعشت زمانى لست أحفل بالورى وكيف وقلبى هام فى مشهد القدس

ومع أنه كتم حاله وأسراره عن عموم الجن والإنس ، فإنه شرح حاله للخواص الذين هيأهم الله باستعداد فيهم أن يقفوا على حاله ويتعلموا منه ما هو عليه فيقول :

وعلمت غيرى ما أفدت من الهدى فلم يبق فهم لدىَّ على طمس
إذا وسد الناس القبور فإننى
جعلت التقى والذكر بين الورى رمسى
ولم أخش من بأس ولم أخش طاغيا
ومن يخش ذات الله لم يرى من بأس
وهل غيرت ذات الله للنفس مطلب حرام سوى الرحمن يدخل فى نفسى
وتوجت بالقرآن نفسى عقيدة أصون به نفسى عن الزيغ والدس
وإن شرب الناس الطلا [1] وتصببوا فسنة خير الخلق فى شربها كأسى
وما اتخذت روحى سوى الله غاية فتم الهدى للروح والقلب والحس
وإن رفع المثرون عجبا رءوسهم رفعت بذكر الله فوق الورى راسى
وإن جعلوا الشمس اهتداء ليومهم جعلت رضا ربى وآيته شمسى

[1] الطلا : اسم من أسماء الخمر .

وإن غرسو زرعا لنيل حصاده فتقوى إله العرش بين الورى غرسى
تعشقت نور الله وهو بصـــيرتى
وقد وضح البرهان من آية الكرسى
ومذ شاهدت روحى جلالك وارتقت
تجرَّدْ ت عن معنـــاى فى عالم الحس
أحبك يا ربى محبة موقن وفى قوة الإيمان أصبح أو أمسى
فؤادى قد أبعدت عن مشهد الوَرَى
فطهر فى نجواك من ظلمة الرجس
أطوف هلى الأبواب قلبى موجع وليس سوى رحماك للقلب من نُطْس
وأعدمنى فى الحب علمى بقدره فليس غرامى فيه يدرك عن قيس
ولم أعشق الدنيـا فتلك متابة تهيىء للأخرى وفى فوتها عرسى
لقاؤك يا رحمن عيـــدى وعدتـى
ونورك غيثى وهو لى فى الورى أنسـى
وبحرك منه قد لقيت جواهرى بشاطئه سفنى على لجه غطسـى
وطيب الورق وروس [1] ومسك وعنبر ،
وطيبى من محياك أسمى من الورس
ولست من الدنيا أميل إلى العلا فإن علا الدنيا لأصحـابه ينسى
أمتع أعضائى بذكرك دائمـا وهل غير ذكر الله يسكن فى نفسى
وكل رجائى أن أحبك صادقـا إذ الصدق فى الإيمان مرتبة القدس
وما فضله وقفا على أى عـالم وحقك ما حدا العطاء على جنس
إذا رضى الرحمن عن قلب عبده جرت مركب الأقدار معه على اليبس

---

[1] نبات طيب الرائحة .

الصوفية هم عباد الرحمن :

أما وقد وقفت من القصيدة المتقدمة على حال شاعر الأولياء فاعلم أنه إنما يصف لك حال أولياء الله ، المراعين أنفاسهم مع الله ، وهم عباد الرحمن ، الذين عرفوا فى صدر الإسلام باسم الصحابة ، ثم عرف الجيل الذى بعدهم باسم التابعين ومن بعدهم باسم تابعى التابعين ، وهؤلاء جميعا هم خير القرون ، كما جاء فى الحديث الشريف ، (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .

ثم قيل للصالحين من بعد هؤلاء القرون الثلاثة : الزهاد والعباد ثم قيل لهم الصوفية وذلك فى القرن الثانى من الهجرة .

ومن ذلك يعلم القارىء العزيز أن الصوفية هم خواص الصالحين من المؤمنين ، وهم المقبلون على الله تعالى بظواهرهم وبواطنهم ، وبكلياتهم وبجزيئاتهم ، إن قاموا قاموا على حبه ، وإن ناموا ناموا على حبه ، يؤثرونه سبحانه على هواهم وعلى كل ما سواه ، وهم من البشر ولكنهم فاقوا بهمتهم فى طلب مرضاته البشر ، كما أن الياقوت حجر ولكنه ليس كالحجر ، فإن اتفقوا مع الناس فى الجنس ، فقد خالفوهم فى جهاد النفس ، فتميزوا بنور الروح والحس ، يهدى الله بنوره من يشاء .

الفتوة فى طلب الله تعالى :

وقد وصف الله تعالى أهل الكهف فقال تعالى فى وصفهم : (إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) وقال تعالى فى معونته للمجاهدين أنفسهم : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين) .

ويرى السادة الصوفية أن من الفتوة أن ترد نفسك إلى الله ظاهرة كما تلقيتها منه طاهرة ، ويستندون فى ذلك إلى ما جاء فى الأثر من أن سيدنا موسى عليه السلام سأل رب العزة عن الفتوة ، فقال : (ان ترد إلى نفسك طاهرة كما تقبلتها منى طاهرة) .

الشيخ الأكبر والفتوة :

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى الفتوحات المكية : (الفتى هو من يتصف بالقوة والأخلاق الحميدة ، ويستخدم قوته فى خدمة الله ونصره الضعيف ، وليس له عدو ، ولكن له حساد ومنافسون) .

ويقول شعرا فى الفتوحات :

إن الفتوة ما ينفك صاحبها مقدما عند رب الناس والناس
إن الفتى من له الإثار تجلية فحيث كان فمحمول على الرأس
ما أن تزلزله الأهوا بقوتها لكونه ثابتا كالراسخ الرأسى
لا حزن يحكمه لا خوف يشغله عن المكارم حال الحرب والياس

شاعر الأولياء والفتوة :

ويقول شاعر الأولياء فى وصف فتوته :

ولم أدر طعم الحب من بدء نشأتى ولكنهم بالذكر قد شغفونى
وكنت خليًّا لست أعرف ما الجوى
ولكنهم بالحق قد شغلونى
حلا حبه فهما ووجدا ورغبة لذلك كل الخلق قد رغبونى
أطوف بوجدانى على كل عاشق فألقى احتراما إن هُم شهدونى
وقالوا لى اصبر قلت هل فيه منعة فقالوا نعم قلت اشهدوا وخذونى

الأمام الغزالى والصوفية :

يقول سيدى الإمام الغزالى مجدد القرن الخامس الهجرى فى كتابة المنقذ من الضلال :

علمت يقينا أن السادة الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقتهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .

بل لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمه الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وأول شرائط الطريقة تطهير القلب بالكلية عما سوى الله ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله تعالى .

ومما قاله الإمام الغزالى تعلم أن الطريقة هى قصد الوصول إلى الله تعالى على هدى الشريعة المحمدية ، مع السعى الحثيث الذى لا هوادة فيه ، حتى يخرج العبد من ظلمات الغفلة ، إلى نور المعرفة ، فإذا أنت عرفت ربك لزمته ، ففنيت عن غيره ، وبقيت به وله .

شاعر الأولياء يلوذ بالله :

لذلك ترى شاعر الأولياء يلوذ بالله تعالى فيقول :

الوذ بالله لا أبغى به بدلا ومن يلوذ بباب الله يسعده
أرضى به وهو يرضينى ويغمرنى بعفوه وبهذا العلم أعبده

أخلى فؤادى له من كل شائبة إن عشت أو مت أعضائى توحده
وكيف أرضى بغير الله متجها والكل والجزء والأحشاء تعبده
إذا سهرت فما أسهرت عن ملل لكنه الحب يدعونونى وأشهده
ومذ تغزلت فى ربى وما ألفت روحى سواه تجافى الجفن مرقده
إذا مددت يدى لله أسأله مدت إلى بمعنى فضله يده

ويقول أيضا :

أسير لله فعلم ولى عمل بحكمة الشرع والإيمان قد وضحا
وما سوى الله مقصود نلوذ به ومن يلوذ بغير الله ما رجحا

ثم هو مع مجاهده تركن إلى فضل الله تعالى وإحسانه ، ولا يتكل على العمل ، لأن العمل إنما هو تعرض لرحمة الله وعطائه فيقول :

مهما أتقيت ولم يقبل مجاهدتى فليس ينفعنى فعل ولو صلحا
الأمر لله فاقصده على أدب من يقصد الباب يعط الفيض والمنجا

شاعر الأولياء يستنجد بربه :

ويستنجد شلعر الأولياء بربه دون العباد فى حياته ومماته ويوم الحساب ، فيقول رضى الله عنه :

كنف المهيمن دائما دون الورى أوفى بيه
ياسيدى يوم الحساب وقد سمعت خطابيه
احعل يقينى أن تقينى إن سمعت ندائيه
واجعل بنور العلم والتقوى بكم إشراقيه
وأرحم عُبَيدك فى عنا ء الموت زار تراقيه
مهما فعلت فإننى راج جزيل ثوابيه

يافوزَ من أمسى الإلـه من الهموم معافيه
يارب قومنا بإيمـان طريقُك هادية
وامنح جميع الذاكـرين رضاك فهو دوائيه
أنا قد حَفِظت من المحبـة واليقين كتابيه

ويبســط شــاعر الأوليــاء يــده لربــه الجــواد الكــريم الــذى بيــده وحــده العطــاء ، فيقول :

حلفت بسرك الأسمى يمينا بأنى قد وقفت لك اليمينا
بسطت لها لتمنحنى شهودا فسألت من شهودك لى معينا
وقد توجتنى يارب تاجا به عرف الكرام السابقونا
إذا ما قيل لى ما أنت راج أقول الله رب العـالمينا
أحبك حب عبد فى رجاء لوجهك زاد بالتقوى حنينا
وحق الله لا أنسى وقلبى يشـاهده قوة الرحمن فينا
صلوا حبلى بكم لا تقطعوه فنحن بحبلكم متمسكونا
وقد دارت على الكاسات روحى
فلم أر غيركم يســـقى اليقينا

الامام الغزالى يعجب :

ويعجــب الإمــام الغزالــى رضــى الله عنــه ، ممــن يــؤمن بــالأخرة ولا يســتعد لهــا ، ويبيعهـا بالـدنيا ، ويـرى ذلـك مـن الحماقـة ، ويقـول : إن المـرء لا يبيـع الاثنـين بواحـد فكيف يبيع مالا نهاية له بأيام معددوده .

الامام على يبصرنا :

ويبصــرنا إمامنــا علــى بــن أبــى طالــب رضــى الله عنــه ، وكــرم الله وجهــه ، فيقــول :

(عجبت لمن شك فى الله وهو يرى خلق الله ، وعجبت لمن شك فى الموت وهو يرى الموتى ، وعجبت لمن شك فى النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء) ٠

شاعر الأولياء والمعنى المتقدم :

ويقول شاعر الأولياء فى المعنى المتقدم :

كل شىء يزول عند الممات غير حب الإله والصدقات
فإذا مت لم يكن غير ماقد متـه صالحا قبيل الوفاة
تترك المال للوريث ولكن تؤنس القبر تركة الصالحات
خل عنك الدنيا إن من خدمتهم خدعتهم والذنب للخدمات
وصلوها ظنا بها الخير لكن قطعت عنهمو سبيل الصلات
عبدوها بأنها خير جاه بئس جاها نما على السيئات
وتنادى العباد فى كل يوم احذرونى وجانبوا غدراتى
إن من يفقه الحقيقة يدرى أنها دار دعوة وصلاة
كان فيها وقلبه ليس فيها إنما كان كاسب للأوقات
ذاكر ا شاكرا مقدم بر ساهرا جانحا عن الشهوات
مستدرا فيض الإله عليه مستقيما ملازم الحسنات
قائما فى عبادة الله يقظان قوى الفؤاد أهل ثبات
ذلك الحى فى الرجال عليه يوم أن مات أعظم الرحمات
أنا ما زلت فى دار التجلى صادق العزم صادق القربات
ساعيا فى الهدى أوحد ربى أينما كنت شأن كل السعاة

فخر المؤمن وعزته :

ويبين لنا شاعر الولياء أن فخر المؤمن وعزته فى تهذيب نفسه ، وتمسكه بالحق ، ولا بد أن يستعين فى ذلك بأهل الطاعة ، وهم أهل السعادة الحقة ، فيقول رضى الله عنه :

أى فخر لوارد من تراب وإليه بعد التراب يعود
إنما الفخر أن تهذب طبعا وعن الحق دائما لا تحيد
صاحب الذاكرين بالليل تسعد إن من صاحب السعيد سعيد
والتجلى له القلوب مكان وله الروح مصدر وورود
عزة المرء أن يكون محبا ووفيا والحي فيه الخلود
إن يوم الحساب آت علينا كل شىء فعلته معدود
إن تنم عن آثام نفسك ما نام رقيب ولا تخلى عتيد[1]

عون الله للمجاهدين :

ويبين لنا شاعر الأولياء أن للجهاد مشقاته ، ولا بد للمؤمن من الصبر عليها ، لأن الله تعالى يمد بعونه المجاهدين فى سبيله ، فيصلون بهذا العون الإلهى إلى بر السلامة ، فيقول رضى الله عنه :

حسبت الهوى سهلا فخضت عبابه فطورا به أطفو وطورا به غطسى
إلى أن أتتنى من لدنه عناية وصلت بها بر السلامة والأنس

وتلك العناية هى المشار إليها فى الاية الكريمة " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم

---

[1] رقيب وعتيد هما ملكان يحصيان حسنات العبد وسيئاته .

سبلنا وإن الله لمع المحسنين " ، ولا شك أن الدنيا دار جهاد وابتلاء ، وليست فيها حلاوة مثل حلاوة الإيمان ، ولذلك تقول سيدتنا الطاهرة نفيسة العلم (الدنيا كلها مرارة ، فإن كانت بها حلاوة فهى حلاوة إيمان) .

جهاد النفس فى جنب الله تعالى :

يجاهد السادة الصوفية أنفسهم جهادا لا هوادة فيه إرضاء لله تعالى ، فيكفونها أولا عن المعاصى ، ثم يقبلون على الطاعات بأنواعها فى همة قوية ، وعزيمة مؤكدة ، وهم يقولون : أن اجتناب المعاصى مقدم على فعل الخيرات ، ومن حكمهم : أعمال البِرَّ يعملها البار والفاجر ، ولا يجتنب المعاصى إلا صديق .

الصوفية والتوبة :

واول المراقى عندهم فى جهاد النفس التوبة من الذنوب ، السر بالسر ، والعلانية بالعلانية ، والتوبة واجبة على الفور عندهم ، لأن العبد لا يدرى متى يفجؤة أجله ، ويستدل علماؤهم على وجوب التوبة بقوله تعالى : (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

ويقول الإمام سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه :

(طريق التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية ، وأول مراتب الرياضة هى نفسها أول مقامات اليقين ، وهى التوبة ، وحد التوبة نسيان الذنب وابتغاء القرب) .

توبة العوام وتوبة الخواص :

وبقول سيدى ذو النون المصرى رضى الله عنه :

(توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة) ، كما يقول : (الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين) .

ويقول العارف التميمى ، رضى الله عنه :

(شتان بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات) .

ويقول سيدى الواسطى ، رضى الله عنه :

(التوبة النصوح لا تبقى على صاحبها أثرا من المعصية لا سرا ولا جهرا ، ومن كانت توبته نصوحا لا يبالى كيف أصبح وكيف أمسى) كما يقول : (التوبة توبتان : توبة الإنابة ، وتوبة الإستجابة ؛ فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفا من عقوبته ، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرمه) .

ويحكى بعض السادة الصوفية أن بعض المذنبين تاب من ذنبه ، ثم وقع فى المعصية وندم ، وأخذ يفكر هل لو رجع إلى الله وتاب هل يقبل الله توبتة ؟ فهتف به هاتف من الحق : أطعتنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، فإن عدت إلينا قبلناك ، وإن أهملتنا حجبناك ، فأنشد :

يا رب قد تبت فاغفر زلتى كرما
وارحم بعفوك من أخطأ ومن ندما
لا عدت افعل ما قد كنت أفعله
عمرى ، فخذ بيدى يا خير من رحما

هذا مقـام ظلوم خائـف وجـل
لم يظلم الناس لكن نفســه ظلما
فاصفح بعفوك عمـن جاء معتـذرا
وإغفــر ذنوب مسيئ طالما اجترما

شاعر الأولياء والتوبة :

أما شاعر الأولياء فله فى التوبة شعر رقيق ، ومن ذلك قوله :

بينى وبينك سر ليس يعلمه سواك فاستر على المسكين ما اجترحا
إنى أســأت ولكنى التجأت لكم
من يلتجىء لكم فى القصـد ما جنحا
لى فيكمو أمل منه ارى صلتى ياخير من بفؤادى العمر ما برحا
لو كان كالطود ذنبى فى ضخامته وقلت : يارب ، عنى الذنب قد مسحا
من ظن أن عطاء الله عن بدل واستكثر العفو منه ضل ما نجحا
مهما أطعنا فمـا تغنيه طاعتنا ولن يضر بمن يعصى ومن نزحا
فاعلم بأن مقــام العفو مغتسل
يسمـو به كل من ناجى ومن صلحـا
زادت ذنوبى ولكن ما استجرت به
إلا وجدت مقــام العفو قد وضحا
إن نام قلبى من الزلات فى ظلم فإنه بضياء العفو منــه صحا
الذنب يَحزننى والعفـو يفرحنى فأعجب لكاسب ذنب ينتشى فرحـا
فمـا أرانى من الزلات منقبضا إلا ورحت بفضل العفو منشرحا
ما زال يرحم من ضعفى ويستر لى شيبى ويغمرنى من فيضه منحا

شاعر الأولياء ويوم القيامة :

ويذكر شاعر الأولياء نفسه بيوم القيامة ، وما يكون فيه من حساب الخلائق ، فيخاف ذنبه ، ويحسب للموقف حسابه ، فيستعطف ربه ويطلب عفوه ، فى ثقة به تعالى وحسن ظن ، فيقول :

أنا مذنب واحسرتى أنا ما نسيت حسابيه
بل خائف يأتى الحسا ب وما أمنت عذابيه
يا رب أنت علمتنى لم تخف منى خافيه
سَقمى يزيد ، وإنما آيات عفوك شافيه

شاعر الأولياء والبشرية :

ويحاسب شاعر الأولياء نفسه على ذنوبه ، ويطيل من حسراته ندما ، حياء من ربه ، ثم يذكر أنه بشر خطاء بطبعه ، فيستند إلى عفو الله تعالى ، الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، فيقول قدس الله سره :

لم يفتنى تذكر الذنب يوما إن ذنبى يطيل من حسراتى
أنا والله لا أخاف سواه كل من فى الوجود عبد الذات
لم ارالعصمة التى زعموها إنما الذنب مظهرى وسماتى
دون ذنب ما كنت أدرك عفوا إن عفو الإله أزكى صِلاَتى
رب هبنى رضاك سرا وجهرا واعف عنا يا غافر الزلات

شاعر الأولياء بين الخوف والرجاء :

وينصحنا شاعر الأولياء ان نعبد الله تعالى بين خوف ورجاء ، فلا نخاف إلى درجة اليأس والقنوط من رحمة الله ، ولا نطمع فى الرحمة إلى درجة الاستهانة

باقتراف الذنوب ، والتهاون فى طاعة الله ، بل يجب أن نجمع بين الخوف والرجاء وهما للمؤمن كالجناحين للطائر الذى يطير بجناحيه معا ، ويعلو بهما على السماء ، فيقول طيب الله ثراه :

لا تيأسوا من رَوحه فاليائسون كفره
أو تأمنوا من مكره فالآمنون فجره
ما بين خوف ورجا تعبد نفس حذره
إن كنت ترجوا عفوه فاعمل وخذ ما أمره
ولا تقل أنا الفتى قبل جواز المقبرة

حسن الظن بالله تعالى :

ويقوى شاعر الأوليا فينا حسن الظن بالله تعالى ، حتى نركن إلى جوده وإحسانه سبحانه ، فيقول رضى الله عنه :

إن علمتم أن الإله كريم أتراه يرد من ناداه ؟ ؟
لو بأعمالنا نكافأ ضعنا إنما عفوه وحسن عطاه
إن رجونا كان الرجاء من العبد جميلا إذا دعا مولاه
رب رفقا بمن أتاك ضعيفا حاملا ثقله كثيرا أذاه
أنا باك ولست يوما بشاك كيف أشكو والقلب حل حماه

الأعمال والجزاء

وفى مناسبة ما يقوله شاعر الأولياء :

لو بأعمالنا نكافأ ضعنا إنما عفوه وحسن عطاه

أذكر أنى وقفت يوما عند الملتزم بالكعبة المشرفة (بين الحجر الأسود وباب

الكعبة ، ويسمى أيضا الحطيم) لأدعو ربى بعد الطواف والصلاة فى مقام إبراهيم ، فتذكرت قول المرحوم إسماعيل صبرى :

أنا يا إلهى عند بابك واقف لا أبتغى عنه الزمان عدولا
ما جئت أطلب أجر ما قدمته حاشا لجودك أن يكون قليلا

فرددت البيتين وأنا فى غاية السرور ، رحم الله أهل الحكمة .

محبة الله والمغفرة :

ويرى شاعر الأولياء أنه إن كان مذنبا ، فإنه لا ينثنى عن محبة ربه ، وتلك المحبة أضاءت له قلبه ، وأصلحت له سريرته ، فيقول رضى الله عنه :

إذا رابنى ذنبى دعتنى محبتى إليه وما تَثنى الذنوب عن الحب
حياتى حياة المذنبين ومهجتى لها أدب فى الحب جل عن الذنب
أضاء الهدى قلبى ونقى سريرتى فلست كبعض الناس أنسب للترب
فيارب إن زادت ذنوبى فإننى وثقت بأن الفضل اوسع من عيبى
فإن كان ذنبى مبعدى عنك لحظة فإنك غفار الذنوب بلا ريب
وإن كان لى مما فعلت جريمة فحوضك لى طهرى وفضلك لى طبى
وما لذتى إلا التجائى لوجهكم فوجهكموا دون العوالم لى قطبى

الأمل فى عفو الله تعالى :

ويتعلق شاعر الولياء باملـه فى عفو الله تعالى ، محسنا ظنه بربه ، فيقول رضى الله عنه :

أنا يارب لم أنزل غارقا فى ضلالاتى
أملى عفوك الذى منه ارجو متابتى

أنا يارب دائما فى همـوم وكربة
وزمانى يقول لى لا تفتخر بقسوة
كل من عاش ذاهب أى فخر لميت ؟ !
أنا إن كنت مذنبا فرجائى مشوبتى
ولئن كنت مخطئا رب فاغفر خطيئتى
إن روحى بحبه قد ترقت ورقت
وتواصت بحقه وأستقامت وقامت
بالهدى صاننى وقد بعت نفسى برغبتى
بين عز وحكمة أكمل الله نعمتى

الإمام الشافعى والتوبة :

ومـن شـعر إمامنـا الشـافعى رضـى الله عنـه فـى التوبـة ، وقـوة الرجـاء فـى عفـو الله سبحانه :

إليك إله الخلق أرفع توبتى وإن كنت ياذا المن والجود مجرما
ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل
تجـود وتعفو منة وتكرما

الشيخ الحلوانى الكبيرفى استغفاره :

ولسـيدى العـارف بـالله الشـيخ أحمـد الحلـوانى الخليجـى (والـد شـيخى العـارف بـالله سيدى عبد السلام الحلوانى) رضى الله عنهما وعن ذويهما ، قصيدة سماها المستغفرة وهى كما تراها تنم عن صلاحه وعلمه وذوقه العالى ومشربه الصافى ، يقول فيها :

أسِتغفر الله ربى فالله رب غفور
مما جناه جنانى أو اللسان العثور
أو الجوارح منى فإنها قد تثور
أوظاهر ليس يخفى أو باطن مستور
أستغفر الله مما قد قلته وهو زور
ومن تناس بناس عمن هو المذكور
ومن خلاف أمور أنا بها مأمور
أستغفر الله مما جرى به المقدور
من كل أمر معيب قد كنت فيه أمُور
لم يرض ربى وقلبى بكسبه مسرور
ففى العبادة طرفى ولو بصيرا ضرير
وفى الذنوب فؤادى على عماه بصير
ياويلتا من ذنوب فجورها مفجور
ومن خطاى اللواتى إلى الخطأ تستطير
وآه من كل إثم عليه يطوى الضمير
ومن مقاصد سوء جرى بها التعبير
ومن خطيئات خطى وما حوى التسطير
ومن ومن لست أدرى فذاك شىء كثير
قبائح كنت فيها أسرى وطورا أسير
نسيتها ووعاها كتابى المسطور
ماذا أقول لربى إذا بدا التجرير
يارب أنت عَفو وأنت رب قدير
والعفو عند اقتدار يقال خَير وخِير

يارب أنت كريم والعبد عبد فقير
يارب إنى حقير جدا وأنت الكبير
وأين ترب خسيس من ربه يا مجير
وما أريد احتجاجا عليك بل أستجير
أجِر عبيدك يامن سواه ليس يجير
ولى إليك شفيع بدر الظلام المنير
غوث الأنام المرجى إذا السماء تمور
به توسلت فاجبر كسرى فإنى كسير
واسكب عليه التحايا ما فاض منه النور

شرف الإنتساب إلى الله تعالى :

يتشرف شاعر الأولياء بسعيه فى سبيل الله ، فلا يتخلف عنه أبدا ، لأن ذلك السعى يجعله سعيدا بالأنتساب إلى ربه ، وهو شرف ليس وراءه شرف ، فيقول :

أسعى لخلاقى وأقصد وجهه وعن المسير إليه لن أتخلفا
يا مالكا روحى ومانحها الهدى انظر إلى فأنت أكرم من عفا
إن قيل من قلت امرؤ فى ربه ساع وهذا فى انتساب قد كفى
لا والذى غمر العباد بفضله إنى بغير الله لن أتشرفا

وفى شرف انتسابه لربه يقول شاعر الأولياء – رضى الله عنه – مرة أخرى :

أرواحنا متناسقا ت وهى للرحمن تنسب

قالوا بأنك لم تكن فيما تقرره منسب
فأجبتهم أنا نسبتى عبد على الأبواب أحسب
حريتــى رق لكم فهى المقام وذاك أقرب
أنا صابرا إلا على بعدى فما للصبر مركب
قولوا قبلنــاكم فهــذا فى الحياة الخلد يكتب

التمسك بالكتاب والسنة :

وشــاعر الأوليــاء فــى ســلوكه إلــى الله وجهــاد نفســه فــى جنــب الله يتمســك بالكتــاب والســنة ، لأن التمســك بهمــا يحفظــه مــن الغوايــة والضــلال ، وهــو كســائر الأئمــة الصــوفية يتأســون فــى مســلكهم بحبيبنــا المصــطفى صــلى الله عليــه وســلم ، قــولا وفعــلا وحالا ، لأنه تعالى يقول : (وإن تطيعوه تهتدوا) .

لــذلك يقــول إمــام الصــوفية فــى القــرن الثالــث الهجــرى ، الإمــام أبــو القاســم الجنيــد رضــى الله عنــه : علمنــا هــذا مقيــد بالكتــاب والســنة . ويقــول ســيدى محيــى الــدين بــن عربى (المتوفى ٦٣٨هـ) . لا يرتجى الوصول من لم يتابع الرسول .

ولا شــأن للســادة الصــوفية بمــن يــدعى التصــوف ، ولا يتمســك بالكتــاب والسنة والتصوف عندهم لا يتحقق بدعوى كاذبة ، ولا يطلب من غير طريقه الشرعى الصحيح ، وإنمــا يميــز الله الخبيــث مــن الطيــب بــالتزام الشــرع أو تركــه ، والله تعــالى طيــب لا يقبــل إلا طيبــا ، وقــد قالهــا تعــالى صــريحة : (ومــن يطــع الله ورســوله فقــد فــاز فوزا عظيما) .

لذلك يقول شاعر الأولياء فى اعتصامه بالكتاب والسنة :

وتوجت بالقرآن نفسى عقيدة أصون به نفسى عن الزيغ والدس

وإن شرب الناس الطلا [١] وتصببوا
فسنة خير الخلق فى شربها كأسى

ويقول ايضا :

أسير الله فى علم ولى عمل بحكمة الشرع والإيمان قد وضحا

كما يقول :

إن تر الناس زيفوا الشرع فيهم فاجتنبهم فهم وحقك ضلوا
اجعل الشرع موردا ومقاما إن من يهتدى به لا يضل

ويقول كذلك :

قالوا صف الحب لا تخطئه فصفه إن كان وصفك بالحق اتبعناه
فقلت صدق وإخلاص وتكرمة وأن تموت وأن المقصد الله
وأن تسير على الشرع الشريف فلا تخل بالحكم أو تلعب بمعناه
وسنة المصطفى ترضى مواردها ولا تحيد ففيها الخير تلقاه

ويقول :

ألا فى سبيل الحب لم أرض غيره وما أنا إلا حيثما الشرع ناهل
أصون ودادى أن يدنسه الهوى وأحفظ عهدى العمر ما أنا غافل

---

[١] معناها الخمر ، وقد استعمل اللفظ ذاته سيدى العارف بالله قطب عصره الشيخ أحمد بن شرقاوى الخلونى (المتوفى ١٣١٦ هـ بدير السعادة محافظة قنا) فقال نور الله ضريحه :

عاينت كأس الطلا يبدو لشاربه ويمطر الحكمة الحسنا لطالبه
وأغلب الكون يلهو فى مآربه وسرت سيرا قويما لا اعوجاج به
وكيف لا وصحيح الشرع ميزانى

حوالى فضل الله من كل جانب عزيز غزير جاره اليوم واصل

بينى وبين شاعر الأولياء :

وعندما أنشد شاعر الأولياء البيت السابق ، أردت أن أبرز للسامعين فضل الله على أوليائه المتقين ، فرجوته رضى الله عنه أن يقول حوالى مرة أخرى فقال فورا :

حوالى نور المصطفى وأنا به أموت وأحيا إنه لى مناهل

فرجوته أن يقول حوالى مرة ثالثة فقال :

حوالى نجم العلم يسكن جبهتى أسالم أيامى وما أنا جاهل

فرجوته أن يقول حوالى مرة رابعة فقال :

حوالى إيناس من الله وحده وما لعبت يوما بعقلى الشواغل

فرجوته أن يقولها مرة خامسة ، وكان العجب قد بلغ غايته من السامعين فقال وهم فى دهشة عظيمة :

حوالى إشراق من الشرع ثابت وشمس التجلى ما عليها حوائل

فما كان من السامعين إلا أنهم هبوا وقوفا فى تأثر ظاهر وصرخوا بأعلى أصواتهم (الله) وكان ذكرى ذلك مولد الإمام الحسين السبط رضى الله عنه وكان الزحام على أشده ، وكم من آيات بينات . ويقول شاعر الولياء :

يا أيها السارى لخلاق السما وفقت جاهد فى فؤادك واختف

وإذا اقتديت فبالكتاب لك الهدى

حافظ على آياته بتلهف

وانهض بروحك نهضة قدسية ولسنة المختار فى السير اقتف
لا تلتزم دعوى ى بغير أدلة دعوى بغير أدلة لم تعرف
أن الدليل هو النجاة وإنه هو كاشف الظلمات للمتشوف

وفى التمسك بالكتاب والسنة يقول سيدى العارف بالله القطب الشيخ أحمد ابن شرقاوى الخلوتى :

يا صاح جىء نحونا إن كنت ذا نظر
تجد كؤوس الهنا تصفو بلا كدر
فمربعى فى كتاب الله من صغر ومرتعى سنة المختارمن مضر
ومنهجى قد علا عن نزغ شيطان

العلم والعمل :

ويوجهنا شاعر الأولياء إلى أن العلم بأحكام الله إنما هو وسيلة للعمل ، فإذا لم يعمل العالم بعلمه عطل سيره إلى الله ، وإذا عمل المؤمن بلا علم صحيح ضل طريقه ولم يحقق ما يرجوه من العمل ، فبقول رضى الله عنه :

والقلب روض واليقين ثماره فإذا اعتززت به تطيب ثمار
كم من جهول ظنه فى جنة وعلى جوانحه تدور النار
دنياك مدعاة الغرور فكن على حذر ولا تلعب به الأشرار
عمل بلا علم رجاء ضائع والعلم لم تعمل به لك عار
علم بلا عمل زهور عطلت كالروض قد جفت به الأثمار
هذا لهذا لازم هذا بهذا قائم فلتسعد الأخيار
وابن الطريق بغير علم ضائع إن الطريقة كلها أسرار
قد ضل من ترك السلاح وراءه إن السلاح به الجهاد يدار

العجزعن إدراك كنة الله :

يرى (شاعر الأولياء) كما يرى غيره من أئمة الصوفية والدين ، أن العبد عاجز عن إدراك كنة الله تعالى ، لأن العبد حادث والله تعالى قديم ، ولا سبيل إذن أمام الحادث لمعرفة كنة ربه الذى خلقه وسواه ، فإذا أقر العبد بمعجزه عن إدراك كنة الله ، فقد أدرك الحقيقة بعجزه ، ولهذا قالوا : العجز عن الإدراك إدراك .

ويعجبنى ما يقوله السادة الصوفية حين يقولون : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله . كما يعجبنى قولهم : العقل آلة للعبودية يعرف به العبد ما عرف ، وليس بآلة للاشراف على الربوبية . وقولهم : العقل يجول حول الكون ، فإذا نظر إلى الكون ذاب .

وقد رأى سيدى الإمام جعفر الصادق ، رضى الله عنه ، جده المصطفى صلى الله عليه وسلم فى الرؤيا ، فسأله عن حقيقة التوحيد ، فعلمه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم القاعدة الآتية :

(كل ما خطر ببالك فهو هالك والله بخلاف ذلك) .

فاحرص أيها القارىء العزيز على تعلم تلك القاعدة ، وعلمها لغيرك ، ورحم الله امرأ علم وعلم .

ويقول سيدنا أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل الدليل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

وهذا القول يفسر لنا سر قوله صلى الله عليه وسلم : (تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا) .

ويقول سيدى (أبو الوفا بن عقيل ، رضى الله عنه : أنا أقطع أن الصحابة

ماتوا وما عرفوا الجوهر والعَرَض ، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين[١] أولى من طريقة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فبئس ما رأيت .

ويقول سيدى السيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى كتابه الفتوحات المكية : ومن العجب أن الله تعالى يخبر بشىء عن نفسه فى كتابه المحكم ، فيأتى الإنسان بعقله القاصر فيقول : إن عقلى يرد ذلك وفكرى لا يحتمل ذلك ، وإنما يجب التأويل ، أليس عاقبة هذا التأويل أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقا غير ما فى كتاب الله ؟ ؟

وفى رأى ابن عربى رضى الله عنه ، أن قول الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) يتضمن نهيا عن التفكير فى ذاته سبحانه ، لكن التأمل إنما يكون فى خلقه سبحانه ،وذلك التأمل يكون للعظة والاعتبار ، ولإدراك قدرة الله تعالى وسعة حيطته وعلمه ، وأنه تعالى فعال لما يريد ، لأنه سبحانه طلب من عباده شرعا ، التفكر فى خلقه بقوله عز وجل : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

ويقول سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه :

(ترى أحدهم يخوض فى الكلام على الذات ، وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار وقيام الليل والخوف من الله تعالى ونحو ذلك ، حتى كأن الإسلام لديهم محض كلام من غير عمل) .

---

[١] يقصد بهم من أطالوا الكلام والجدل فى مجالات التوحيد .

ويقول شاعر الأولياء فى مقام العجز عن إدراك كنه الله :

حب المهيمن باليقين روانى وإلى الجلال شهوده أزجانى
أصبحت لا ألوى عنانى للورى ما دمت بالبارى رفعت بيانى
عجزى عن الإدراك إدراكى به جل المقام فما يبين لسانى
فبحبه وبسره وبنوره روح اليقين أظلنى وكسانى

أما وقد عجز شاعر الأولياء عن إدراك كنه الله ، فقد أدرك الحقيقة بأنه تعالى : (ليس كمثله شئ) فحق للقلوب أن تتعلق به ، وحق للأرواح أن تهيم فيه ، ولا تنفك عن هداه ، وفى ذلك يقول رضى الله عنه :

يا أيها القلب المهيأ للرضا صغ من هواه أعذب الألحان
من بحره تجد الجواهر أطلقت قد وشحتك بأجمل التيجان
من يطلب الرحمن جل جلاله لم يخش بعد ملامة من شأن
إن حدثوا عنى فإنى مغرم متمسك بالواحد الديان
أسمو بروحى فى حماه وأنتمى فالعشق تاجى واليقين عيانى

ثم هو يضبط عواطفه بحدود الشرع ، فلا تخرجه مواجيده عن تلك الحدود ، التى يتوقف رضاء الله على التزامها والوقوف عندها ، لأنها وحدها تهدى للتى هى أقوم ، فيقول :

لم أخلط الأحكام بالأحوال فى طلب الوصول فشرعه أغنانى
إن كان حب الله ذنبى عندهم هذا لعمرك فى المقام كفانى

ويقول :

ومن البلادة أن ينقب عاجز عن سر مَن مِن خلقه الأكوان
خذ من حياتك عدة من شرعه إن الشريعة للهدى ميزان

شعر للشيخ الأكبر :

أمـــا ســـيدى محيـــى الـــدين بـــن عربـــى فيقـــول فـــى العجـــز عـــن إدراك كنه الله تعالى :

قل لأمرئ رام إدراكا لخالقه العجز عن درك الإدراك إدراك
من دان بالحيرة الغراء فهو فتى لغاية العلم بالرحمن دراك
وأى شخص أبى إلا تحققه فإن غايتـه جحد وإشراك
فالعجزعن درك التحقيق شمس ضحا جرت بها فوق جو النسك أفلاك

كمـا يقـول سـيدى الشـيخ محيـى الـدين بـن عربـى فـى ضـرورة الاسـتماع لإرشاد الله تعالى ، واتباع أحكام الشريعة :

يا صاحب الإذن إن الإذن ناداكا مع الخطاب إذ الرحمن ناجاكا
فإن وعيت الذى يلقيه من حكم عليك كانت لك الأسرار أفلاكا
وإن تصاممت عن إدراك ما نثرت لديك كانت لك الأكوان أشراكا

الصوفية ووحدة الوجود المفتراه عليهم :

يفتـرى المستشـرقون علـى السـادة الصـوفية ، وبخاصـة علـى الشـيخ الأكبـر سـيدى محيـى الـدين بـن عربـى فينسـبون إلـيهم أنهـم يقولـون بوحـدة الوجـود ، ومحـال أن يقـول السـادة الصـوفية بوحـدة الـذوات الفانيـة فـى الله البـاقى ، وكيـف يقولـون ما يتنافى مع التوحيد وهم العلماء الحكماء الأتقياء . ؟ !

ويتصـيد المستشـرقون للسـادة الصـوفية بعـض ألفـاظ رمزيـة موهمـة لمـن لـم يفهمهـا ، ويبثـون مـن خيـالهم بـين النـاس تلـك الفريـة ، التـى لـيس لهـا ظـل مـن الحقيقـة ، ليؤيـدوا بطريقـة ملتويـة فلاسـفة الغـرب فيمـا يدعونـه مـن وحـدة الوجـود بـين الله والعـالم ، مع أنه سبحانه كان ولا شىء قبله ، ويكون ولا شىء بعده .

وينبه المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام إلى ضرورة مراعاة الفرق بين فهم الصوفية وغيرهم لحقيقة وحدة الوجود [١] بقوله :

(ينبغى أن يفرق بين وحدة الوجود التى رآها بعض الفلاسفة اليونان ، ووحدة الوجود فى رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شىء واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعلم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وانما الوجود لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو) ولقد أفرد سيدى الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتاب (اليواقيت والجوهر) مبحثا خاصا ينفى عن الشيخ الأكبر ما نسبه إليه خصومه من دعوى الحلول والاتحاد ، واستشهد على براءته بكلامه هو فى (الفتوحات المكية) وغيرها .

والألفاظ الموهمة إن صحت نسبتها إلى الشيخ الأكبر فيجب تأويلها أو رد مراده منها إلى الله تعالى ، وحسن الظن بالمؤمن أسلم من تكفيره ، وخاصة من كان من كبار العلماء الأولياء ، بل من خاصة خاصتهم مثل الشيخ الأكبر ، الذى تصدى للدفاع عنه مثل الإمام جلال الدين السيوطى ، والإمام الشعرانى وغيرهم .

ويروى (المقرى) فى نفح الطيب عن سيدى الشيخ الأكبر ، أنه قال : قال لى بعض لإخوانى لما سمع قولى :

يامن يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟ قال : فقلت له مرتجلا :

---

[١] أعلام التصوف الإسلامى جـ ١ ص ٨٥ .

يامن يرانى مجرما ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما ولا يرانى لائذا

ويعقب (المقرى) على ذلك قائلا :

من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ – رحمه الله تعالى – مؤول وأنه لا يقصد ظاهره ، وإنما له محامل تليق به ، وكفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة ، فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد ، وللناس فى هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أحسن والله سبحانه وتعالى بكلام أوليائه أعلم [١].

الحلاج ودعوى الحلول والاتحاد :

وينفى (الحلاج) رضى الله عنه دعوى الحلول والاتحاد هذه فيقول :

وظنوا بى حلولا واتحادا وقلبى من سوى التوحيد خال

الربوبية والعبودية عند شاعر الأولياء :

ويتميز شاعر الأولياء بوضوحه ، فما عهدته ، مع طول عشرتى له ، جاء بالمتشابه فى كلامه ، بل كان ينساب شعره سهلا مبسطا لا شبهة فيه فى أدق المقامات وأرقها ، فها هو ذا يتكلم عن بقاء الله تعالى وفناء العالم وعن عبوديته وافتقاره لله سبحانه :

أن ذات الحبيب قد شغفتنى ودرست الغرام من معناها
عزتى عزة الكواكب لكن
زدت بالعقل والهدى من علاها

---

[١] نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٣ .

فوق نجم السماء وطدت رأسى وتلاشيت عندها من سناها
إن أمنيتى فنائى بحبى وهو نعم البقاء فى محياها
لا أبالى بالكون فى أى أمر إنما الكون كان من مقتضاها كل
روح تفرغت لرضاة سعدت بالقبول من مسعاها
إن تلاهيت فى الحياة بشىء لست عن ذكر خالقى أتلاهى
إن روحا خافت من الله حقا واستغاثت به رأته رجاها
قبلتى فى الصلاة ساعة وقت كم مصل بعد الصلاة تلاهى
إنما قبلى جميع حياتى هى ذات الإله لن أنساها
فمسائى مع اليقن نهار ونهارى سعادة برضاها
كل شىء يهون عندى سوى الله فما للحياة أعطى انتباها
ليس تفكيرى فى غد كيف يأتى ما مضى اليوم عفتها أشباها
واعتصامى بالله طول حياتى علم النفس أن تذوق هناها
آنس الله مهجتى بعلوم مزجتنى بها فكنت وعاها
طاف بى النور فالمعارف بحرى تلفظ الدر وهى لا تتناهى
وارتقاء الأرواح فى مورد العلم يُصَفى الأرواح من دنياها
وانعدام الأهواء والحسن منها هو معنى السمو فى مسراها
يا سرورى بقوله يا عبدى أنا فى سمعها أنال رضاها

شاعر الأولياء وقضاء الله .

وكما ذهب شاعر الأولياء إلى العجز عن إدراك كنه الله تعالى ، كذلك ذهب إلى العجز عن معرفة أسرار القضاء ، فرد إلى الله تعالى ، ونهى عن الجدل فى القضاء والقدر ، مبينا أن ما يجرى به القضاء هو من أسرار الله تعالى

العليــة ، ومــن غيبياتــه الخفيــة ، ولــيس لنــا مــن الأمــر شــيء ، وعلينــا التســليم بالقضاء والرضا به .

ويقول سيدى الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه :

(ومما من الله على إيمانى بأن أفعال العباد خلق الله تعالى فى حال إضافتها إلى العباد معا فى آن واحد ، وهو من أصعب الأمور ، لأنه إيمان بطريقتين متناقضتين فأشهد بعين بصيرتى فى مثل قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) أن الرمى لله تعالى ، فى حال كونه للعبد لا على التعاقب ، ويحتاج صاحب هذا المشهد إلى عينين ينظر بهما إلى النسبتين حتى يخرج عن النسبة ، فإن صاحب العين الواحدة لا يقدر على الخروج من الحيرة فى هذه المسألة أبدا .

(فالذى يجب اعتقاده ، أن الله تعالى خالق أفعال العباد ، وأنها مكتسبة لهم وأن حجة الله قائمة عليهم ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، ولا يطلب الوصول إلى الغاية فى ذلك ، فلسنا مكلفين بها مع صعوبة مراقيها) .

اتخاذ الأسباب مع الإيمان بالقضاء :

ويقول سيدى ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى ضرورة الأخذ فى الأسباب مع الإستناد إلى المسبب سبحانه :

(فلا بد لك من الأسباب وجودا ، ولا بد لك من الغيبة عنها شهودا ، فأثبتها من حيث أثبتها بحكمته ، ولا تستند إليها لعلمك بأحديته) .

وكلام هؤلاء العلماء الأولياء ، كلام نفيس ودقيق ، فاحرص عليه وانتفع به .

الشرع ونهيه عن الجدل فى القدر :

وقد نهى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجدل فى القدر

وحدث أبو هريرة رضى الله عنه قال :

خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال :

(أبهذا أمرتم ؟ ؟ أم بهذا أرسلتُ إليكم ؟ ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا) .

وسأل رجل الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن القدر ، فقال : طريق دقيق لا تمشى فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر ، فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن القدر ، فقال : سر خفى لا نفشيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخيرنى عن القدر فقال : إن الله تعالى خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء : فقال : إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ؟ قال : كما شاء قال : ألك مشيئة مع الله ، او فوق مشيئة الله ، أو دون مشيئة الله ؟ أما إن قلت مع مشيئتة ادعيت الشركة معه ، وإن قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

وهذا درس قيم من إمامنا على كرم الله وجهه ، فمن تعلمه تجنب السخط على المقدور ، والتزم الرضا بمواقع القدر ، لأنه حكم الله ، وتحلى بالتسليم لله فى سلطانه الذى لا دخل لنا فيه ، ولا حيلة لنا معه ، فإنما نحن عبيد ، والله يحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه سبحانه .

ويقول شاعر الأولياء فى ذلك المقام :

اسعد بتقوى الله لا تلهيك دنيا فانيه
بالذكر نفسك تهتدى والذكر يهدى العاصيه

و إذا رضيت قضاء ربك لا تخاف القاضيه
و إذا عجزت عن الأمور دع الأمور كما هيه
ماذا يضيريك لو رضيت وما علمت ا لماهية
إنى من التوحيد فى حشرى أمنت الطاغية
ومدامعى من حبه أمست بحارا جاريه
ومنابت الأشواق من ثمر المحبة زاهية
والروح من وجد عن الأغيار عاشت نائيه
فنيت به عن غيره فاستمسكت بالباقيه
رضيت فلما أخلصت بقيت وإن تك فانيه
شرفت به وتلذذت بشهوده فى عافيه
إن كان جسمى بالفنا ء سقوفه متداعيه
فالروح بعد فنائه فى الخلد شمس ساميه

سيدى أحمد البدوى والقضاء :

سئل سيدى الإمام أحمد البدوى رضى الله عنه ، عن حقيقة الصبر فقال : هو الرضا بحكم الله ، والتسليم لأمره ، وأن يفرح الإنسان بالمصيبة كما يفرح بالنعمة قال تعالى : (وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) فأرشد سبحانه إلى أن الصبر لا يتحقق إلا بثلاثة أشياء :الرضا بحكم الله ، والتسليم لآمره ، والفرح ببلائه .

فقولهم : (إنا لله) ، إقرار واعتراف بأنه سبحانه مالك الملك وهم مملكون له ، ولا يتحقق هذا إلا برضاهم عن تصرفه فى ملكه ، وهذه هى الخصلة الأولى ، وهى الرضا بحكمه .

وقــولهم : (وإنـــا إليـــه راجعـــون) ، إقـــرار واعتـــراف بـــأنهم هـــالكون لا محالـــة ، ولا يتحقـق هـذا الإعتـراف إلا بتسـليم أمـرهم وأنفسـهم لـه ، وهـذه الخصـلة التاليـة وهى التسليم لأمر الله .

وقـول الله بعـد ذلـك : (أولئـك علـيهم صـلوات مـن ربهـم ورحمـة) بشـرى عظيمـة تقتضـى أكبـر الفـرح والسـرور ، وهـذه هـى الخصـلة الثالثـة ، وهـى الفـرح ببلائـه . ويقـول أيضـا رضـى الله عنـه : (مـن وصـل إلـى مقـام التسـليم ، فـاز بريـاض النعيم) .

شاعر الأولياء والتسليم :

ولهـذا نـرى شـاعر الأوليـاء ناطقـا بالتسـليم لله تعـالى ، والرضـا بقضـائه سـبحانه فمن قوله :

علمونى كبف المسير إلى اللـه وقالوا : خذوا الرضا تيجانا
منذ رأونى أهيم فى الله صـبا
أدخلونى فى الحكمة الميدانا
حليـة الناس جوهر وعقود
وتُقى الله – يا رجالُ – حُلانا
نجتلى ذكره ونرتاح فيه فانتهانا فى الذكر منه ابتدانا
نتنادى إلى اليقين هلموا وبهـذا لربنا نتدانى
إننا ملكه وموعدنا الحشر فهل عنه لحظة نتوانى ؟
أعرف الله ثم مل عن سواه كان عرفان غيره كفرانا
قد نشأنا على اليقين صغارا وكبرنا وما جهلنا المكانا
ونطقنا وما نطقنا بُهجر بل جعلنا تقواه منا لسانا

وأدخرنا اليقين للحشر ذخرا وملأنا من الثبـات جنانا
ولبسنا من الحياء شعارا وجعلناه فوقنا طيلسـانا
قد علمنا أن المحبة كنز كل من صانها سما بنيانا

ويقول أيضا :
سلم لأمر الله لا تقف الهوى من سلم الأمر احتواه أمان
ومنازل التسليم خير وقاية ممن يخوض وماله عرفان
ماذا يفيـدك أن تعلل رحمة أو أن يكون على القضاء بيان
تعس الذى لم يبغ إلا علة وقضى ولم يسطع له برهان
ومن البــلادة أن ينقب عاجز عن سرَّ مَنْ مِنْ خلقه الأكوان
خذ من حياتك عدة من شرعه إن الشريعة للمهـدى ميزان

ويقـول سـيدى العـارف بـالله الشـيخ أحمـد الحلـوانى ، والـد شـيخى وسـيدى الشـيخ عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنهما :
إن كنت صاحب عزم به تنــال طلابك
لا تشك للخلق ضرا واصبر على ما أصابك

كما يقول أيضا رضى الله عنه :
له الخلق والأمر سبحانه له صفوة للرضا يصطفيها
فهم فى الجنان وقد قصروا هنيئا لهم ما يشاءون فيها

ويقول فى محبة الله لأهل الابتلاء :
يا صاحب البلوى دع الشكوى إلى غير الإله وامتثل حكم الإله
واشكره فهى نعمة إذ قد أتى إذا أحب الله عبدا ابتلاه

كما يقول :

أفعـــاله محكمة وقل من يفهمهـا
يفعل الله ما يشـاؤه لحكمة يعلمهـا

ويعلـــق علـــى بيتيـــه ســـيدى الشـــيخ أحمـــد الحلـــوانى ، قـــدس الله ســـره ، فيقـول : مـا فرحـت بشـيء مـن نظمـى قـط ، فرحـى بهـذين البيتـين ، وأرجـوا أن ينفعـانى غدا إن شاء الله تعالى ، وإنى أكررهما فى النازلة تنزل بى فينكشف عنى غمها .

ويقول سيدى القطب الكبير ، عبد القادر الجيلانى ، رضى الله عنه :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى

الأسباب والرزق :

ومـــع أنـــه تعـــالى كلفنـــا الســـعى فـــى كســـب الأرزاق ، فإننـــا نســـعى امتثـــالا ، والـــرازق هو الله تعالى ، وليست الأسباب هى الرازقة ، و إنما نحن نتعرض بها لعطائه سبحانه ، والـــدليل علـــى أن الأســـباب ليســـت رازقـــة ، أن نتـــائج الســـعى تختلـــف بـــين شـــخص وشـــخص بـــل بـــين الولـــد ووالـــده ، والأخ وأخيـــه ، فقـــد يقـــل رزق القـــوى المجالـــد ، وقـــد يكثـــر رزق الضـــعيف العـــاجز ، وقـــد يضـــيق رزق الـــذكى العـــالم ، وهـــو مـــا يؤكـــد ان الأرزاق بيده سبحانه ، يقدرها كيف يشاء .

ولهذ يقول إمامنا الشافعى رضى الله عنه :

كم من قوى فى تقلبه مهذب الرأى عنه الرزق ينحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلطا كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الإله له سر خفى علينا ليس ينكشف

كما بين لنا إمامنا الشافعى رضى الله عنه ، أن الرزق لا يتمشى مع المواهب العقلية ، بل المشاهد فى الكثير الغالب أن يقل رزق ذوى العقول الراجحة ويتسع رزق ذوى الحماقة ، وهو ما يؤكد وجود الله حقا ، كما يؤكد قيام الأمور بقضائه وقدره سبحانه ، فيقول رضى الله عنه :

إن الذى رزق اليسار فلم يصب حمدا ولا أجرا لغير موفق
الجد يدنى كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
فإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه فغاض فحقق
وإذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأثمر فى يديه فصدق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتنى بأجل أسباب السماء تعلقى
لكن من رزق الحجا حرم الغنى ضدان مفترقان أى تفرق
ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

شاعر الأولياء والمال

وما دام الرزق ومقدورا من الله ، فإن شاعر الأولياء يرى أنه لا يجوز أن يلهينا طلب الرزق عن الآخرة ، فكما نبذل الجهد فى رزق الدنيا ، فكذلك يجب أن نسعى للآخرة سعيها ، فالدنيا ليست خاتمة المطاف حتى نقصر جهدنا عليها ، وننام عن طلب الآخرة ، فيقول رضى الله عنه :

الناس فى الدنيا أيامنا سوقة همهم المال ولبس الجديد
يسعون للدرهم فى قوة لا حر يثنى سعيهم أو جليد
وإن دعوا إلى الصلاة ادّعوا أن اشتداد الحر عاق السجود
وهكذا الأنفس فى طبعها تميل للدنيا ولن تستفيد
أمست الناس فى الحياة ضعافا فتنتهم نساؤهم والعود

أخلدوا للركون والنوم حتى فترت همة وطاب قعود
إن تصديتهم بنصحك ضجوا مالهم إن دعا الصلاح وجود
هم لدى الخير والكمال نعاج ولدى الشر والضلال أسود
ليس الغنى من أفاد الغنى أن الغنى من نجا بالخلود
نحن فى الناس كالنجوم من الليـــل تضىء الظلام وهو شديد
اتركوا غيكم وكونوا جنودا للذى فى حماه عز الجنود
كل شىء يحـــد غير هواه لم تحطه من القلوب حدود

شاعر الأولياء بين العفو والفضل :

ويبين لنا شاعر الأولياء أنه يتعلق بربه ويتمسك به ، ويتمتع منه بعفوه عن ذنبه ، كما يتمتع بفضله فى رزقه سبحانه ، فيقول جوابا على من طلب إليه أن يأتى له بأبيات على وزن البيت الآتى وقافيته :

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده
(ياليل الصب متى غده) لمريض ملت عوده
ما كان هواى لغانية أو كان لظبى أعهده
أنا فى اسم الله وباسم الله ولا سم الله أوحده
فيرينى العفو فأعبده ويرينى الفضل فأحمده
إن عز الناس بما لهمو عزى دين أتعهده
أنا فان منى عنى بل بك باق يسلم سؤدده
وليك هداى ومنك مناى ومنك عطائى أشهده
فمتى ألقاك وبى شغف (أقبام الساعة موعده)

شاعر الأولياء والقناعة ،

ويرى شاعر الأولياء أن الناس فى الدنيا بين يسر وعسر ، ففى اليسر يجب أن يكونوا أهل طاعة ، فلا يفتنهم المال عن ساحة القدس الأطهر ، وفى العسر يجب أن يسألوا الله من فضله ، فإنه سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين ، فيقول رضى الله عنه ، جوابا على من سأله أن يأتيه بأبيات على وزن البيت الآتى وقافيته :

عزيز النفس من لزم القناعة ولم يكشف المخلوق قِناعه

فأجاب :

(عزيزالنفس من لزم القناعة) ويجعل حبه البارى البضاعه
ويجعل ربه المقصود منه ويصرف عمره فى خير طاعة
ويلبَس من لباس الذكر ثوبا ويجعل من محبيه متاعه
ويربط نفسه بالدين ربطا ويجعله من الدنيا شراعه
فمن يركن إلى الرحمن يسعد ومن يركن إلى عبد أضاعه
فودع ما بأيدى الناس طرا على خلق الكرامة والمناعه
وكم من مدع فيها اقتناعا ولكن فى شراهته فظاعه
وكم من مظهر علياء نفس ويفسد حبسه الدنيا طباعه
ولو أن الفتى فى الناس يبقى عزيزا لا يمد يد الضراعه
ويعلم إنما الدنيا متاع وليس تدوم فى الدنيا جماعه
ويذكر فقره فيقول ربى ويذكر يسره فيقول طاعه
يظل مؤيدا بالله ربى عزيزا يرفع الرحمن باعه
ويعرف ما له وما عليه ويفتح صدره للنصح ساعه
إذا لم ترو نبتك كل دهر يضيع وهذه الدنيا أضاعه
أعز الناس من ترك البرايا (ولم يكشف لمخلوق قناعه)

ثم هو رضى الله عنه يسأل الله تعالى فيعطيه ، ويرجوه المزيد فيزيده ، لأن عطاءه سبحانه لا ينفد ، فهو يتمسك على الدوام بمحبة ربه العظيم الكريم ، ولا يصرفه عن حبه البلاء وإن كان شديدا ، لأنه يرضى حكم ربه فى الشدة ، كما يرضاه فى الرخاء ، فيقول عفا الله عنه :

سألت فوفانى رجوت فزادنى وإن كريم الكف ما خاب سائله
أحن على ذل وأهوى على هدى وأسرى على علم بقلبى أواصله
وهل يدرك الآيات إلا رجالها وهل يعرف الوجدان إلا مزاوله
وذوالوجدلا يغضعن الحب لحظة به عاش حتى لو أصيبت مقاتله
شهدنا وشاهدنا وطابت نفوسنا فهامت به أرواحنا إذ نسائله
أسامر ليلى خاليا بشهوده وقلبى بنور الحق فاضت مناهله
رضيت به حتى دخلت رياضة وأوراق من زهر المعارف نائله
فقل للذى لم يشهد الوجد لا تحد عن الحق إن الحق قد خاب جاهله
فإن امرأ بالشرع يعصم نفسه بعيد عليه أن تزيغ دخائله

الذهد فى الدنيا :

ثم يبين لنا رضى الله عنه أن نعيم الدنيا مهما عظم فمآله للزوال ، ولذلك يجب على العاقل أن يعد عدته لما بعد الموت الذى هو حق لا شك فيه ، ويساعده على ذلك زهده فى الدنيا ، والزهد عند الصوفية ليس معناه قلة المال ، وإنما هو ترك الدنيا من القلب وهم يقولون : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك .

لذلك يقول شاعر الأولياء طيب الله ثراه على من سأله أن يأتيه بأبيات على وزن البيت الآتى وقافيته :

ستباشر الغبراء خدك وسيضحك الباقون بعدك

فاجاب :

(ستباشر الغبراء خدك) والى الذبول سقيت وَرْدَك

مهما بلغت من العلا لا تملكن العمر سعدك

الموت حـق واجب فاجعله بين الناس عهدك واسلك

سبيل الأقدميـــــن وخل ذكر الله وِردك

ياقلب إنك إن ترد باب الإله فلن يردك

البس لبـاس تقى وسر تدرك بفضل الله رفدك

ودع الحياة إذا دعت وانظر لما خلدت بعدك

أنا قد خلوت عن الورى وجعلت حبى فيك وحدك

وأخذت ذكرك غايتى وتبعت بالإيمان جندك

وسهرت ليـلى بالهدى ورفعت بين النـاس حبك

ومشيت أنصح للمـلا وأعلَّم الأصحاب قصدك

ياقلب مالك غيـره بعد الممات يعيد ذكرك

أقبل عليـــه فإنه كرما وفضلا لن يصدك

إياك أن تأوى إلى دنيا تضر ولن تمدك

مهما أقمت بها فلن تلقى على الأيام خلدك

ستزول عنك بصفوها (وسيضحك الباقون بعدك)

وينبهنـا رضـى الله عنـه إلـى أن الـدنيا عـزت علينـا فصـرنا نتـألم لمصـابها ، وهان علينا أمر الدين فلا يؤثر علينا مصابنا فيه ، كما يؤثر مصابنا فى أمر الدنيا ، فيقول قدس الله سره :

عابد المال فى الرجال كثير وقليل من كان لله عابد
إننا لو نصاب يوما بشىء حز فى صدرنا المصاب الواحد
وإذا كانت الإصابة فى الديـــن فما ضرنا زوال المعابد
إن سوق العصيان أزوج شىء حيث سوق الأخلاص والعلم كاسد
كن على الحق ما حييت فإن مـــت تناءت بالموت عنك الشدائد
انظر الأمر حيث كان وسلم وتوكل واصبر فربك واحد

رضاء العوام ورضاء الخواص :

يقـول الســادة الصــوفية : رضــاء العــوام بمــا قســم الله وأعطــى ورضــاء الخــواص بما قدره وقضاه ، ورضاء خواص الخواص بالله تعالى عن كل ما سواه .
وقــد كتــب أميــر المــؤمنين عمــر بــن الخطــاب ، إلــى أبــى موســى الأشــعرى، رضى الله عنهما :
(أمــا بعـد ، فـإن الخيـر كلـه فـى الرضـاء ، فـإن اسـتطعت أن ترضـى وإلا فأصـبر) .
كمــا أن أميــر المــؤمنين عمــر بــن الخطــاب رضــى الله عنــه كــان يقــول فــى اســتواء الرخاء والبلاء عنده :
(لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب) .

نصيحة شيخى :

وقد كتب إلى شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه ينصحنى فى إحدى رسائله :
(أما عن الدنيا وما فيها ، فدعها بما فيها لمن يدبرها فيوفيها

وفيها ما فيها ، لأنك إن دبرت وصح التدبير ، وهو مطلوب شرعا ، فلا تدرى كيف قضى فيه ، فإن صح القضاء بالرضا فهو القضاء ، وإن حصل الجفاء ، سألناه اللطف فى القضاء مع الرضا على أنه الرضاء) .

وهى نصيحة غالية كما تراها ، وقد انتفعت بها فحياتى ، ونشرتها بين الناس ، لينتفعوا بها كما انتفعت ، وجزى الله عنى شيخى خيرا كثيرا ، فكم أمدنى بنصحه ، وكم علمنى من تجاربه .

ومن رضى بقضاء الله تعالى ، وصبر على بلائه ، فاز برضوانه الأكبر ، لذلك قال شاعر الأولياء مجيبا على من سأله أن يأتيه بأبيات على وزن البيت الآتى وقافيته :

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمال

فأجاب :

(الله قل وذر الوجود وما حوى) متأدبا فى ساحة الإجلالا

سلم لتسلم فى حياتك إنه من لازم التقوى سما بظلال

واجعل لنفسك من قضا الله ا لرضا حتى تكون موفق الأعمال

فتشت كل الخلق عن علم فلم آرلى سوى رب السما من وال

فتركت كل العالمين وجئته وجعلت ذكرى ذاته منوالى

إن كنت تحسب أن فى المال الغنى أنا قد جعلت رضا المهيمن مالى

أنا إن أكن أجنى الذنوب فإنما روحى ارتمت فى بحره الغسال

يارب قلبى قد غسلت من الورى إذ ليس غيرك ما حييت ببالى

فاجعل هداك شريعتى وذريعتى واجعل شهودك لى مسرة حالى

إن مر بى عصف الزمان وقصفه والله لست بما شهدت أبالى

أأحبه وأخاف سطوة غيره هذا وحقك لا تعيه خصالى

روض المحبة قد شهدت جماله وجلاله فثبت فى أحوالى
يانفس إنى لا ألوذ بغيره قومى إلى حوض الكريم تعالى
إن الذى فهم المحبة قلبه فى القدر من بين البرية عال
الله قربنى إليه بفضله لم يرض لى فى الحب اى تعال
سلم لربك أمره واترك له أقداره واحذر من الألقوال
وذر العباد وشأنهم وفعالهم (إن كنت مرتادا بلوغ كمال)

الشبلى ومواقع القضاء والقدر

يقول سيدأبو بكر الشبلى رضى الله عنه : من عرف الله لا يكون له غم أبدا .
وسئل ، رضى الله عنه ، فى معنى تلك الكلمة فقال : معناها كلمة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أصبح سرورى فى مواقع القضاء والقدر .
ولقد سمعوا سيدى الشبلى ينشد :

ذاب مما فى فؤادى بدنى وفؤادى ذاب مما فى البدن
فاقطعوا حبلى وإن شئتم صلوا كل شىء منكمو عندى حسن

ويقول شاعر الولياء فى سعادته بالرضا :

رضينا بما يرضيك أنت هدانا وإن نطلب اللقيا فأنت منانا
إذا كنت تهوى الله نلت مكانه وإن كنت تهوى الناس نلت هوانا
الا أيها اللاحى تجرع كؤوسنا لتصبح منا إن سقيت سقانا
وتعرف عنا ودنا وغرامنا وتدرك منا علمنا وهدانا
تجلت لنا الأنوار من عالم البقا فهامت بها أرواحنا ونهانا

فنينا بها حبا فطاب حياتـنا رأينا بها عند الفناء بقانا
لنا فطنة فى حبنا وسلوكنا ومن حفظ الأسرار عـز أمانا

ويشـرح ، رضـى الله عنـه ، تلـك الفطنـة التـى عـاش بهـا فـى حبـه وسـلوكه إلـى الله تعالى فيقول :

أضاء الهوى قلبى ونقى سريرتى فلست كبعض الناس أنسب للترب
تركت الورى دونى وجئتك مفردا فلم يك غير الله فى السمع والقلب
وطهرت فى نجواك سر جوانحى فخلصتها من عالم البعد والحجب رضاء
الفتى بالله يشرح صدره فلن يتأذى بالحوادث والخطب ولكننى طوع
القضاء وحكمه فلست بناج منه إن زل بى كعبى ونحن أولوا علم
ولكن بوجدنا شربنا من الأنوار ما ليس بالشرب كما يقول رضى الله عنه :

تجلى علينا الله والليل أردفت ذوائبه والناس فى الليل نوَّم
أخذنا شجون العشق نخلو بنفسنا وأرواحنا فى ربها تتهيم إذا
كانت الأجساد تروى من الثرى
فإنا بنور الله نروى ونـنعم

نعم ، نحن من أبناء آدم عنصرا ولكننا فوق السموات نكرم محجتنا
القرآن وهو إمامنا وقدوتنا المختار وهو المعلم فلم تك
إلا للإله عبادتى ومن عبد الرحمن بالعفو يرحم أتحسبنى أنساه فى
العمر لحظة وكيف وقلبى باسمه يترنم أفاض علىَّ الحق من
بحر نوره فقلبى بغير الحق لا يتكلم

زَهِدْتُ حياتى إذ فنيت بحبه ومثلى من فى حضره الحق يعدم

ولولا حجاب الغفلة اليوم فوقنا تفانى على نور المشاهد مغرم
فيا هذه الدنيا اصنعى ما أردته فإن رضاء الله للقلب أكرم
ولست بشاك من كفافى وقلتى فلى فضله عن كل لهوك مغنم

شاعر الأولياء والتفويض لله تعالى :

ثم يدعونا شاعر الأولياء أن نفوض أمورنا لله تعالى ، دون ضجر أو تبرم مما يقع لنا ، إذا الحكم حكم الله وحده سبحانه ، فيما كان وما يكون ، فيقول رضى الله عنه :

تخل ولا تحفِل بجن ولا إنس وعش فى هدى الرحمن تسعد بلأنس وأقبل
على مولانا بالقلب مخلصا وأسلم وسَّلم واتجه طالب القدس
وخذ لك بالإيمان أصدق وجهة وطهر بها نفسا عن الغى والرجس
تجرد تجد مولانا أكبر ناصر وفوض له ما كان فى الغد والأمس
حياة الورى حلو ومر وإنما حلا المر بالتوحيد من رقة الحس
ومن لا يرى إلا الإله مراده حرام عليه الخوض فى العرش والكرسى
وإنك لو عظمت دينك عالما وعاملت بالحسنى وأدبت للنفس وكنت على الأحداث بالله راضيا
سواء عليك الموت أو ساعة العرس
سعدتَ من الدنيا بربك محسنا ونلتَ من الأخرى العطاء بلا بخس
إذا قيل لى اطلب قلت ربى مطلبى وإن قيل لى اشرب قلت أنواره كأسى

الثبات عند أهل اليقين :

والرضوان بقضاء الله أهل يقين راسخ ، لذلك تراهم يثبتون عند وقوع الأحداث مهما عظمت ، وهم فى ثباتهم يكلفون بشريتهم ضد طباعها ، فيعجب الناس لثباتهم هذا ، وما يدرون أن الخواص لهم خواص تميزهم عن العوام ، ولقد شهدت بنفسى من شاعر الأولياء الصبر الجميل ، والرضا التام ، حين فقد أكبر أبنائه المرحوم فتحى على عقل ، وكان طالب علم بالأزهر الشريف وفى نحو العشرين من عمره ، فصلى عليه أبوه الشيخ صلاة الجنازة وصليتها معه فى المستشفى ، وبعد أن سلم من الصلاة رأيته يرفع يديه للسماء ويقول : اللهم لا تؤاخذنا بما فى قلوبنا اللهم ثبته عند السؤال

وبعد أن وارياه التراب ، جلس فقرأ على قبره سورة يس ، وصحبت الشيخ إلى شيخى وشيخه عبد السلام الحلوانى وكان مسكنه فى شبرا ، فطلب طعام الغداء فأكلنا ، وكنا نحتفل أيامها بذكرى المولد الحسينى ، رضى الله عن صاحبه وأرضاه ، فجاءنا شاعر الأولياء ليلا وأنشدنا كعادته ، ثم حبب إلى ان أسهر معه ألى الفجر فسهرت ، فأخذ يضاحكنا كما عودنا ، وعجبت مما كان ، ورويته لسيدى الشيخ عبد السلام فى اليوم الثانى وقلت له : يا سيدى كنت أظن أن ما يوصف به الصوفية فى الرضا بالقضاء والثبات عند الأحداث إن هو إلا ضرب من المبالغة ولكنى رأيت من سيدى الشيخ على عقل صدق ما قرأناه فى هذا الشأن ، فما كان من سيدى الشيخ عبد السلام إلا أن قال : أنا والشيخ على كذلك تأتينا المصائب فلا نتزحزح ، فقلت فى نفسى لله رجال .

وقد بلغ من عجب الجلساء ، معنا ليلتها ، أن قال أحدهم لشاعر الأولياء : مات ابنك نهارا وأنت تضحك الناس ليلا ، فقال : أرأيت لو كان الموت قد

جاءنى هل كنت أستطيع له دفعا ؟ ؟ لله ما اعطى ولله ما أخذ ، والتسليم لله واجب على العبد .

وقد رأيت مثل هذا الصبر الجميل كذلك من أستاذنا العارف بالله السيد – أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلوانى (أكبر أبناء سيدى الشيخ عبد السلام وخليفته من بعده) حين فقد أكبر أبنائه المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الحلوانى ، وكانت سنه قد قاربت الثلاثين ، ومات فجأة وهو يؤدى عمله كطبيب بالمستشفى . كما أنه مد الله فى عمره ابتلى فى جسده بأمراض شديدة فتحملها بصبر جميل .

ولا تستغرب أن ترى الصبر الجميل من هؤلاء الخواص ، فهم يتأسون بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وفيما أدبه به سبحانه قوله الكريم : (فأصبر كما صبرأولوا العزم من الرسل) فصدع بأمر ربه وكان إمام الصابرين على الشدائد . وأخذ عنه أصحابه ذلك الأدب السامى ، كما أخذه سادتنا آل بيته الأطهار ، فصبروا على الأحداث الجسام التى تنوء بحملها الجبال .

وهنا ها هو ذا إمامنا (سيدى أبو عبد الله الحسين السبط) رضى الله عنه وعن ذويه يفلسف لنا صبرهم هذا ويكشف عن سره ، وكان قد مات له ابن فلم ير الناس عليه ذلك الجزع الذى يرونه عند الآباء حين يفقدون الأبناء ، فسألوه فى سبب ثباته ، فقال رضى الله عنه : نخن أهل البيت نسأل الله فيعطينا ، فإذا أراد ما نكره فيما يحب رضينا . وما أروع ذلك البيان .

ثم إنى عاشرت شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى نحو خمسة عشر عاما ، وأعدها أسعد أيام حياتى ، فلم أسمعه شاكيا من الدنيا أو أهلها مرة واحدة ، وهو ولا شك أمر خارق للعاد ، وأنى كنت أعلم من أسراره

التى ائتمننى عليها ما يصح ان يكون موضع الشكوى لو لم يكن سيدى الشيخ من العارفين بالله ، ومن الرجال .

إمامنا الشافعى والمشيئة :

ويقول إمامنا الشافعى ، رضى الله عنه ، فى رد المشيئة إلى الله تعالى :

وما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ففى العلم يجرى الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقى ومنهم سعيد ومنهم قبيح ومنهم حسن

السيدة الصابرة :

والسيدة الطاهرة النقية ، الصابرة المحتسبة ، عقيلة بنى هاشم ، سيدتى زينب بنت الإمام على ، وأخت السبطين الحبيبين المباركين سيدى الحسن والحسين رضى الله عنهما وعن ذويهما ، تعلمنا الثقة بالله تعالى ، والرضا بقضائه تعالى وإن كان مرا وانتظار اليسر بعد العسر ، مع التشفع لله بأحب أحبابه ، وأصفى أعزائه ، جدها مولانا المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، فتقول رضى الله عنها وعن آلها وذويها :

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم يسر أتى بعد عسر وفرج كربة القلب الشجى
وكم أمر تساء به صباحاً فتأتيك المسرة بالعشى
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً فثق بالواحد الفرد العلى
تشفع بالنبى فكل عبد يغاث إذا تشفع بالنبى
ولا تجزع إذا ما ناب خطب فكم لله من لطف خفى

كما تقول رضى الله عنها :

سهرت أعين ونامت عيون لأمور تكون أو لا تكون

إن ربا كفاك ما كان بالأمس سيكفيك فى غد ما يكون

فادرأ الهم ما استطعت عن النفس

فحمــلانك الهموم جنون

وحق لسيدتى زينب أن تتكلم فى الصبر والرضا ، فقد تكلم فيه حالها قبل لسانها ، حين صبرت على ما وقع لها وللمسلمين فى واقعه كربلاْ المشؤومه ، حيث رأت كل كبار اهلها من الرجال صرعى ظلما وعدوانا من بغاة الشر والعدوان ، وعلى راس اولئك الشهدا الابرار ، سيد بنى هاشم بل سيد بنى آدم ، مولانا أبو عبدالله الحسين البسط ،الذى قتل بغير ذنب او خطيئه ، إلا أن تكون غيرته على الدين وعلى حقوق المسلمين ذنبا عند بنى اميه الذين اشتروا الضلاله بالهدى والعذاب بالمغفره .

ولقد فاقت السيده زينب فى الرضا والتسليم ، صناديد الرجال ، وأكابر الابطال ، فكانت فى ذلك الموقف آيه الآيات ، وتركت بصبرها الجميل صوره ناطقه أبلغ من الكلمات ، وأفصح من الحكم البالغات ، إن فى ذلك لذ كرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

بعض الحكم فى الصبر:

ويقول سيدى العارف بالله الشيخ احمد الحلوانى الخليجى ، نور الله ضريحه ، حاثا على التسليم والصبر :

سلم لربك ما قضى واصبر اذا اشتد الحرج

واذكر حديث المصطفى الصبر مفتاح الفرج

ومن حكم السادة الصوفيه قولهم : تجرع الصبر ، فان قتلك قتلك شهيدا ، وان احياك أحياك عزيزا .

ومن حكمهم الشعريه :

وإذا عرتك بليه فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك اعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما
تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

ويقول سيدى أبو الدرداء ، رضى الله عنه : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر.

وقد جعل الله فى الصبر على المكروه خيرا كثيرا فقال تعالى : (كتب عليم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون) .

التدريب على الصبر

ولهذا يدرب السادة الصوفية أنفسهم على تجرع المكروه حتى تألف الصبر عليه ، ويكون عادة لها ، وإرضاء لله تعالى ، ويقول فى ذلك التدريب سيدى إبراهيم الخواص رضى الله عنه :

صبرت على بعض الأذى خوف كله ورفهت عن نفسى لنفسى فعزت
وجرعتها المكروه حتى تدربت ولو لم أدربها إذن لا شمأزت
ألا رب ذل ساق للنفس عزة ويارب نفس بالتذلل عزت إذا ما
مددت الكف ألتمس الغنى إلى غير من قال اسألونى فشلت

سأصبر جهدى أن فى الصبر عزة وأرضى بدنياى وإن هى قلت

شاعر الولياء يفلسف الصبر :

ويعلمنا شاعر الأولياء أن الصبر على المكروه سبيل لأن ينضج المؤمن فى يقينه بربه ، كما أن النار الحامية سبيل لإنضاج الطعام ، فيقول رضى الله عنه :

لولا التألم فى الحياة لما بدا نور التأمل لأمرىء قوام
لولا وقود النار فيما ينبغى ما كان ينضج بعد أى طعام

ويقول فى تسكين النفس لقضاء الله تعالى :

إن تكن مخلصا لربك فى القلب فمر الحياة عذب وسلسل إنما هذه الحياة قضاء وقضايا لها البرية تجهل ليس يدرى القضاء إلا الذى قد ره وهو فى الحقيقة اول فعليكم بالعجز فى كل شىء إنما العجز بالمسلم أكمل إن من ذاق للمحبة طعما فهو عند الأحداث لا يتململ وحياة الشهود عز ونور فمع الموقنين سر وتوكل

ويقول ايضا :

تعب النفس فى الحياة دواها نالت العز والمنى بشقاها تعبت ليلا فاستراحت نهارا وجدت كنزها بنور دجاها كل شىء له انتهاء ولكن فضل رب العباد لا يتناهى

أختفاء أسرار القضاء :

ويبين لنا شاعر الأولياء الحكمة فى اختفاء أسرار القضاء عن العباد ، فيقول إن

اختفاء تلك الأسرار من رحمة الله بهم ، كما يبين لنا ان الله تعالى يفقر عبده فى الدنيا ليجعله غنيا فى الآخرة ، وقد يكون العكس ، فمظاهر الدنيا تختلف عن مظاهر الآخرة ، فيقول رضى الله عنه :

وحسبك ستر الله عزا ومنعة ولولاه ما ذنب العباد قد استتر ولو
لم يصن سر لهان موقر لذلك سر الخلق غاب عن النظر ولا
تخش هما إنه ليس دائما وكم تعب أدى إلى النصر والظفر ورب
أخى فقر تظ شقاءه حداه إلى الجنات فقر وما افتقر
ورب أخى حظ يدل بحظه تراه من الأخرى توسد فى سقر
فحاسب هنا تهنأ هناك منازلا
ومن حاسب النفس اجتباه الذى فطر
وما هذه الأيام إلا رواحل علوت لها ظهرا وكنت على سفر
وحسبك من دنياك أجر ورحمة ومن لم ير الأخرى المراد قد اندثر

الذهد وإيمان :

يبين لنا شاعر الأولياء أن المرء لا يستطيع أن يذوق حلاوة الإيمان إلا إذا كان زاهد فى الدنيا ، وقد علمت مما تقدم ان الزهد عند السادة الصوفية ليس معناه الفقر ، بل هو ألا تفرح بموجود فرحا يطغيك ولا تحزن على مفقود حزنا يرديك ، عملا بقوله (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور) فقد يكون الغنى زاهد وقد يكون الفقير غير زاهد ، وهو ما يفسر لك حكمتهم التى مرت عليك : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد ان تتركها من قلبك وهى فى يدك . ولا يظن القارىء الكريم أن ترك الدنيا من القلب وهى فى اليد مستحيل ، فقد وقع بالفعل ولكن وقع من قلة فى الناس أمثال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز والإمام أبى

حنيفة وإبراهيم بن أدهم والشبلى ، رضى الله عنهم أجمعين ، والتربية الدينية الصحيحة القوية هى التى ساعدت على تحقيقه .

ويتعرض شاعر الأولياء للصلة بين الزهد والإيمان القوى ، فيقول رضى الله عنه :

احفظ لسانك عن سواه وشرَّف لا يُلهينك موقف عن موقف واصبر
فإن الصبر عُنوان الوفا لا يدركُ التقوى سوى القلب الوفى إن الذى
درس اليقين بروحه آثاره مهما اختفى لا تختفى والنار تطفئها
المياه وإنما نار المحبة جذوة لا تنطفى ليس التصوف بالكلام
وإنما صدق الفعال قرارة المتصوف كم ظاهر لكنه لا يزدهى
ولكم ترى التقوى مع الأدب الخفى بل ربما كره النعيم وملة قد
تشغل النعماء قلب المدنف فإذا أردت
بأن توازن بينهم فزن الرجال بحب ربك واصطف إن الهدى
حلو لزاهد عيشه لكنه مر بقلب المترف لا تبتغى
الدنيا وتبغى غيرها ضدان ما اجتمعا لصب تصوف من كانت
الدنيا المراد لقلبه لم يرق دار الأكرامين ولم يف

النية الخالصة :

يعنى السادة الصوفية بتخليص النية فى عباداتهم ومعاملاتهم ، وهم يتأثرون فى ذلك بمثل قوله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ، وبمثل الحديث الصحيح : (إنما الأعنال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى) .

وهم يتأسون فى تخليص النية من الأغراض بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأصحابه الأعلام الذين اقتدوا به فرضى الله عنهم وأوصاه بهم فى قوله الكريم : (وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة

والعشى يريدون وجهه) فكشف عن صدق نيتهم ، وبين أنها خالصة لله تعالى ، كما قال تعالى فيهم : (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) فكانت غايتهم من العبادة رضوان الله سبحانه ، فهى عبادة لذاته العلية لا تشوبها ، شائبة ، ولا يخالطها غرض دنىء .

شاعر الأولياء وإخلاص النية :

ويقول شاعر الأولياء فى إخلاص النية لله تعالى :

لا تذكر البارى بقصد ولاية أو ان تكون على السما لا تنطفى
بل فابغ وجه الله جل جلاله من رام غير جنابه لم يشرف

الإمام الغزالى ينصح لنا

يقول الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء :

(إن ما ينال به الفضل عند الله شىء ، وما ينال به الشهرة عند الناس شىء آخر ، فقد كانت شهرة أبى بكر رضى الله عنه بالخلافة ، وكان فضله بالسر الذى وقر فى قلبه ، وكانت شهرة عمر ، رضى الله عنه بالسياسة ، وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته .

ثم يقول الإمام الغزالى ناصحا لنا : (فليكن غرضك فى طلب ذلك السر ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون) .

والإمام الغزالى فى كلامه على علم أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، إنما يشير إلى كلمة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فقد قال عندما مات أمير المؤمنين عمر : أحسب ان تسعة أعشار العلم قد مات ، فقيل له : تقول ذلك وفينا جلة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام ، وإنما أريد العلم بالله تعالى .

شاعر الأولياء والبواطن:

وفى العناية بتحلية البواطن وكسب أسرار القلوب ، يقول شاعر الأولياء رضى الله عنه :

ليس التصوف بالظواهر إنما هو للبواطن حلة وشعار
الناس لا يريدون خاتمة المطا ف فرب ذي شعث له إيثار
كم ضاحك لكنه فى محنة كم خائف لكنه مختار
من أدركوا عشقوا ومن ذاقوا ارتووا إن المحبة كلها أسرار
اصبر تفز واذكر تحز واعرف تلذ واسلم بقلبك إنه غفار
فإذا سألت حباك من آلائه رب العباد المنعم الستار

محبة الله وآثارها :

والسادة الصوفية يرون أن محبة الله هى الغاية من العبادات ، فهى التى تعصم العبد من الوقوع فى الزلات ، كما تعصمه من التقصير فى الطاعات .

شاعر الأولياء والمحبة :

ولذلك يقول شاعر الأولياء فى فضل المحبة :

الحب فيه حارت العقلاء هو قوة للمرتجى وضياء
وله على الأرواح أكبر عصمة وهو الأمان وللنفوس وقاء
فإذا عشقت الله عشقاً صادقاً كن بعد ذلك صاح كيف تشاء
فالحب يمنع أن تزيغ عن الهدى الحب ستر للفتى وغطاء
ما الحب إلا قوة روحية يرقى به السارى وفيه دواء
إن الهدى صدق الوداد وصونه والعهد إن تحفظ فذاك شفاء

الحب إن ملك النفوس أعزها والعاشقون بربهم علماء
فإذا اتقينا الله جل جلاله قضيت حوائجنا وسال الماء
يامن تعرف بالمهيمن قلبه أبشر فإن الذكر فيه ضياء
ليس العطاء المال عند أولى النهى العلم عند الموقنين عطاء
يا رب عين أبصرت لكنها لا تهتدى للحق فهى عماء
والأصل فى الدنيا المحبة والهدى لولا الهدى لم تخلق الأشياء

حب القلب والقالب :

وقد وقف شاعر ا؟لأولياء قلبه وقالبه على محبة ربه سبحانه ، فهو يقول :

عميت عيونى عن سواه وإنها أبدا لغير جلاله لا تدمع
أذنى عن الأغيار صمت فهى فى كل الأمور إلى السوى لا تسمع
قلبى له بيت به فى رفعة والبيت بالسكان [1] قدراً يرفع

ابن الفارضى والشبلى والحلاج فى ذلك المقام : ويقول ابن الفارضى رضى الله عنه ، فى حب القلب والقالب :

أنتم فروض ونفلى أنتم حديثى وشغلى
ياقبلتى فى صلاتى إذا وقفت أصلى

[1] محبة الله تعالى هى التى تسكن القلب وتشغله ، كما يسكنه الإيمان به والثقة فيه والتوكل عليه ، أما ذات الله القديمة فحاشاها أن تتصل بمخلوق حادث ، أو تنفصل عنه

جمالكم نصب عينى إليه وجهت كلى
وسركم فى ضميرى والقلب طور التجلى

أما الشبلى فيقول :

إن بيتا أنت ساكنه [١] غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

كما يقول رضى الله عنه :

والله ما طلعت شمس ولا غربت
إلا وحبك مقرون بأنفاسى
ولا جلست إلى قوم أحدثهم
إلا وأنت حديثى بين جلاسى

العبد عند شاعر الأولياء :

أما وقد وقف شاعر الأولياء نفسه على محبة ربه ، فإنه يفرح بلقائه ويجعل عيده يوم لقياه سبحانه رضى الله عنه :

ليس من ورث عرشا ملكا أو على الملك تفانى واتكل
إنما الملك الذى حد الهوى وعن اللهو تناءى وعدل
وحياة قد خلا سلطانها من تقى الله قصاراها الفشل
ليس عندى أى مال إنما كل مالى فيه علم وعمل
إيه يادنيا افعلى ما شئته إن شمس الحشر أدنى من زحل

---

[١] انظر معنى السكن بالهامش السابق .

شهدت روحى محياه وقد لاح لى نور المحيا واتصل
إن عيدى يوم القاه فما لى عيد غير وجه الله جل

الشبلى والعبد :

أما الإمام أبو بكر الشبلى رضى الله عنه ، فقد سمعوه فى يوم عيد خارجا من المسجد وهو يقول :

إذا ما كنت لى عيدا فما أصنع بالعيد
جرى حبك فى قلبى كجرى الماء فى العود

شاعر الأولياء وأنين المحبين :

ويقول السادة الصوفية : إن محب الله تعالى لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه حين يلقاه وهو عنه راض ، لذلك يئن شاعر الأولياء طامعا أن يجعله الله من أصفيائه الذين قال تعالى فيهم : (يحبهم ويحبونه) ، فيقول رضى الله عنه :

حب من أهوى بلحمى ودمى أملى فى الوصل يشفى ألمى
ليتنى أفنى على أعتابه وأرانى فيه ضمن الخدم
إن دمعى كاد أن يغرقنى بينما قلبى ثوى فى ضرم
لعب الحب بروحى دوره ألهب الحس وأذكى همى
إنما رحمته مغرقتى وبهذا كان معنى عدمى
فأذقنى برد عفو شامل وأذق روحى ثمار النعم

الموت والحياة عند الصوفية :

وبقول السادة الصوفية إن رجلا من رجال التصوف كان يطوف بالبيت

العتيق فتجمعت القرامطة على الناس فقتلوهم فى الطواف ، فلما وصلوا إليه لم يقطع طوافه بالبيت حتى سقط من ضربات السيوف صريعا وهو ينشد :

والله لو حلف العشاق أنهم موتى من الحب ما ماتوا وما حَنثوا
ترى المحبين صرعى فى ديارهم كفتيه الكهف لا يدرون كم لبثوا

كما أنهم يقولون إن صوفيا سئل عن المحبة ، فقال : هى الموافقة وأنشد :

ولو قيل لى متْ متُّ سمعا وطاعة وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا

أما ابن الفارض وهو سلطان العاشقين ، كما يلقبه الصوفية ، فيقول رضى الله عنه :

مالى سوى روحى وباذل نفسه فى حب من يهواه ليس بمسرف
فإذا رضيت بها فقد أسعفتنى يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وأما السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، فكثير ما كانت تتمثل بهذا البيت :

وأشهد فى الوجود جمال حبى وأذهل سكره من فرط حبى

كما قالت رضى الله عنها متشوقة إلى لقاء ربها سبحانه :

أنت أنسى ومنيتى وسرورى قد أبى القلب أن يحب سواكا
يا حبيبى ومنيتى ومرادى طال شوقى متى يكون لقاكا
ليس قصدى من الجنان نعيما غير أنى أريدها لأراكا

الشهيد الحلاج : وأما الشهيد الحلاج ، رضى الله عنه ، فكان يقول :

اقتلونى يا ثقاتى إن فى قتلى حياتى

ومماتى فى حياتى وحياتى فى مماتى
أنا عندى محو ذاتى من أجل المكرمات
وبقائى فى صفاتى من قبيح السيئات
فأقتلونى واحرقونى بعظامى الفانيات
ثم مروا برفاتى فى القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبى فى طوايا الباقيات

الحب والمعرفة عند الصوفية :

ولا تعجب أن يقول الحلاج رضى الله عنه ، ما تقدم ، فإنه يرى ، كما يرى كل الصوفية ، أن المحبة الله تعالى هى المعراج الموصل لمعرفته سبحانه ، وهو يقول فى ذلك :
(لا سبيل إلى معرفة الله بالعلم ، بل إن الحب هو الطريق إليها ، إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهى هى التى تقربنا إلى الله تعالى ، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهى فى كل لحظة).

كما يقول رضى الله عنه :

(مامن أحد يعبد الله بفعل يكون أحب إلى الله من حبه تعالى) .

كيف وصل شاعر الأولياء إلى المعرفة :

وشاعر الأولياء رضى الله عنه ، اهتدى بنور المحبة حتى وصل إلى المعرفة فهو يقول :
محبة خالقى مشكاة قلبى على أنوارها ألقى وصولى

ويبين شاعر الأولياء فى شىء من التفصيل كيف وصل إلى المعرف بالمحبة العارمة فيقول :

حكمت قوة الغرام علينا ففنينا ، ومن يذق فهو يفنى
ولزمنا من المحبة علما قد شرحناه بيننا فاسترحنا
إنما الحب رغبة فاتباع ففناء من البقا فيه معنى
نحن فى عالم اليقين رجال قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم إنما نحن فوق ذاك شربنا
فتح الباب ثم قال لجوه ، فولجنا وبعدها قد وصلنا
أجد الذل أقرب الباب إلى الله محبة لهذا عن العباد افترقنا
إن قلبا يعيش بالذل للناس يعيش الحياة منهم مُعَنى
أيها المستجير بالله طهر قلبك العمر من سوى الله تغنى

سيدى إبراهيم الدسوقى والمحبة :

ويبين لنا سيدى القطب الكبير إبراهيم الدسوقى أن آفاق المحبين أوسع من أن تبلغها أنظار عوام المؤمنين ، لأن الفارق كبير بين العوام والخواص ، فيقول رضى الله عنه :

يقولون لى : ما العلم ، ما السر ، ما الذى
هو الجوهر الغالى عن البحر خبرنا
فقلت لهم هذه مطالع نورنا ومغربها فينا ومشرقها منا
تركنا البحارالزاخرات وراءنا فمن أين يدرى الناس أنى توجهنا

وهؤلاء الخواص يختارهم الله على علم ، ويصطفيهم لحبه سبحانه ، ويقول الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء :

(إن الله تعالى شرابا يسقيه فى الليل قلوب أحبائه ، فإذا شربوا طارت قلوبهم فى الملكوت الأعلى حبا الله تعالى وشوفا إليه) .

المحبة والسهر :

ويرينا شاعر الأولياء أن المحبة تقتضى الجهاد والسهر المتواصل إرضاء للحبيب سبحانه ، لأن التوانى فى الجهاد يعرض جذوة الحب للانطفاء بعد أتقادها فيعيش العبد فى غفلة عن ربه وهموما لا يرضاه المحب الذى ينشد وصلة حبيبه الواحد الأحد جل جلاله ، فيقول رضى الله عنه :

سهام الهوى لم تثننى عن رحابكم ولو أننى منها على مركب صعب
وكيف أهاب الصعب أو أرهب السرى
ومن نام لا يرقى إلى مشهد القرب
وغفلة قلب المرء بعد وحسرة فما نال عقبى ربه غافل القلب
لقد ذل فى يوم القيامة غافل تأخر فى يوم الجهاد عن الركب
ودنياك أرض لو بذرت بها الهدى حمدت أوان الحصد سالمة الحب
ونحن أولو علم ولكن بوجدنا شرينا من الأنوار ما ليس بالشرب
فكنا بفيض الله خير أئمة لنا نوره يهدى من الزيغ والعجب
ولما تدانينا ولاحت دياره [١] وقد جذبتنا نحوها أيما جذب
هتفت بحبى دم لربك وحده وأخرج جميع الكائنات من القلب

[١] أى ديار التجلى التى صارت وطن المحبين فلا يبرحونها ، ويهجرون كل شاغل من أجلها .

الحلاج والمعنى المتقدم :

ونرى الحلاج أيضا تشغله محبة الله عن كل ما سواه سبحانه فيقول مخاطبا ربه جل وعلا :

سكنت [١] قلبى وفيه منك أسرار
فلتهنك الدار بل فليهنك الجار [٢]
ما فيه غيرك من سر علمت به فأنظر بعينك هل فى الدار ديار
وليلة الهجر إن طالت وإن قصرت فمؤنسى أملى فيها وتذكار
إنى لراض بما يرضيك من تلفى يا قاتلى [٣] ، ولما تختار أختار

المحبون فى الحمى يستمدون :

وما دام المحبون قد لجأوا إلى كهف الحمى الأقد س ، فإنهم يستمدون العطاء ممن يملك العطاء والوجود فى الحياة والممات ، وهم يذكرونه على الدوام ولا يغفلون عنه ، لأنه محبوبهم ومطلوبهم ومرغوبهم ، وهو ذاكرهم فى خواصه ، الذين أعرضوا عما سواه ، ولا ذوا بحماه .

---

[١] - أى سكنت قلبى بالمحبة التى ملأت فراغ القلب ، وقد سبق التنبيه إلى أن ذاته العليه سبحانه لا تتصل بمخلوق حادث ولا تنفصل عنه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

[٢] - التهننه هنا يخاطب بها نفسه لأن له قلباً محباً لله تعالى فيأنس به دون غيره ، ويشير إليه سبحانه بقوله الجار .

[٣] - أى أنه باع نفسه لله تعالى ، فلو قتل فى محبته لاسترخص القتل الذى لا يقع إلا بتقدير العزيز العليم ، فإن وقع تقديره وفى سبيله سبحانه كانت فيه راحة المحب المقتول .

ويقول شاعر الأولياء فى ذلك :

لى حبيب لا يفارقنى وبمعنــاه يخاطبنى
وبنعماه يلاحظنى وبعليــاه يلازمنى
وفؤادى عنه لم يحل
ولنا من نور حضرته أمل فى يوم رؤيته
قد رجونا فيض رحمته وتلاحقنــا بساحته
فلقينا أطيب الأمـل
ادخرنا ذكره عددا واتخذنا وده مددا
ومددنا للعطاء يدا فأفاضت باليقين يدا
خالقى فالكل فى نـهل
رائدى فى حبه سهرى وبهذا تم لى ظفرى
يا فؤادى كن على حذر من حساب الله واعتبر
بالذى قد مر من دول
طول ليلى فى محبتكم أتحلى من جلالتكم
قد غرقنا فى مودتكم وانتظمنا فى حمايتكم
فى جلال صيب هطل
يا حبيبى أنت محتسبى أنت مقصودى ومطلبى
أنت يارب السما أربى أنت يا خلاق منتسبى
أنت لى ياذا الجلال ولى
قد تعاهدنا بمهجتنا وتجملنا برقتنــا
وتأهبنــا بخشيتنا وتوجهنا بذلتنا

ومن الأعتاب لم نمل

ولنا من ربنا كرم وعلينا تسكب النعم
نحن بالإيمان نغتنم وبوجه الله نعتصم
ولنا الإخلاص فى العمل
لم تغب عنى مشاهدكم طالما روحى تعاهدكم
وتزكى مقاصدكم وتجلينى مواردكم
فأرى من ضوئها أملى

كتمان الشوق :

وشاعر الأولياء يكتم شوقه ، فلا تبدو عليه مظاهر أهل الشوق ، لكن باطنه لا ينفك عن الحمى الإلهى الذى يسعده ، ومن ثم فهو لا ينصرف عنه ، ولا يشترى رضا غيره ، فهو يقول :

لم تطعنى على البكاء عيونى فاعذرونى إذا حبست الدموعا
لم أجد للدموع أية جدوى قد أذاب الغرام منى الجميعا
قد توجهت للمهيمن وحدى ثم أججت بالغرام الضلوعا
راق شربى ولذ لى ذلة القلـ ب وأحببت فى حماه الخضوعا
قيل لى بع لغيره قلت كلا لسوى الله مهجتى لن أبيعا
من رأى ربه بعين بصير ترك الكون والعباد جميعا
فاطلب الله إن رجوت ملاذا تجد الله راحما وسميعا
وتأدب بالشرع فهو لباس يكسب المرء رقة وخشوعاً
لا نحب الكلام فى الغى لكن
نتوخى بجهدنا المشروعا

خطر العجب بالطاعات :

ويبين لنا شاعر الأولياء رضى الله عنه ، الخطر الكامن فى العجب بالطاعات فيقول : لو أعجبتك نفسك فيما تأتيه من طاعات تتقرب بها إلى ربك ، فإن إعجابك هذا يهدم ما بنيت .

كما أنه يدعونا إلى التمسك على الدوام بحدود شرع الله ، لأن التمسك بها عصمة من الزيغ أو الشك ، فيقول رضى الله عنه :

يا راضيا بالحب فى ربه لقيت كل الخير فى قربه
من يصدق الله ينل قصده وتذهب الأغراض من قلبه
فمل بنا يا صاح نحو الذى أعطى جميع الناس فى حبه
لا تغترر بساد ر جاهل فالجهل يؤذى المرء فى كسبه
وأنا عن العجب فكم عالم ضيع ما شيد فى عجبه
هذا كتاب الله باب الهدى أنواره تهدى إلى ركبه
من طهر النفس بآياته يكشف رب العرش من كربه
من يجعل الشرع له منهجا أخرج كل شك من قلبه
علمنا المختار خير الورى أن نقطع العمر على بابه
دع ما يقول الناس من علمهم مادمت تلق العلم من سببه
بحر التجلى كله حكمة كم تسكر الأرواح من عذبه

قطف ثمار الحب :

ويقول شاعر الأولياء رضى الله عنه : إن الله تعالى يدنى ثمار الحب لمجيبه فيقطفونها وهى دانية ، فيسكرون بها سكرا حلالا ، ينأون به عن شرب المسكر الحرام ، فيقول رضى الله عنه :

توجهنا لرب العـــالمينا وأصـــبحنا به متمسكينا
وأمســينا وآيات التجلى كستنا من محبته اليقينا
ألآن القطف حتى أن قطفنا ثمار الحب عدنا قاطفينا
وعزت دانيـــات مائلات فنلنا من تمايلها الشجونا
سكرنا لا بخمر يد ولكن بعـلم الله مولانا سقينا
صـدقناه فنلنا كل خير ولا يرضى الإله دون الكاذبينا
ورب العرش إنى مستريح بحب الله دون العالمينا

ويقول أيضا :

قد شربنا من حبه فسكرنا وعرفنا من أين نأتى الجوارا
ودخلنا دار الكرامة نروى بيقين الهدى وكنا حيارى
اعـذرونا إذا نهيم فإنا فى ديار الهوى خلقنا أسارى
وترانا من حيث نشرب فى الكأس
سـكارى ولم نكن بسـكارى
نتحلى بالعـلم فى كل ناد ونرى بالتقى علينا إزارا
فقلوب مثل الكواكب فينا تظهر النور فهو لا يتوارى

ابن الفارضى والغرام :

ويـرى ابـن الفـارض ، رضـى الله عنـه ، أنـه مـن فـرط حبـه صـار إمامـا للمحبـين ، وسـلطانا للعاشـقين ، ومـن ثـم جـاء ينصـحهم ألا يسـمعوا لعـذل العـاذلين ، فمـن سـمع لعذل عذاله برىء منه إمام المحبين ، فهو يقول :

نسخت بحبى آية العشق من قبلى
فأهل الهوى جندى وحكمى على الكل

وكل فتى يهوى فإنى إمامه وإنى برىء من فتى سامع العذل
ولى فى الهوى علم تجل صفاته ومن لم يفقهه الهوى فهو فى جهل

ويرى ابن الفارض ، رضى الله عنه ، أن غرام المحبين لله هو الحياة ، فيجب أن يموتوا به ، فإن فعلوا فهم معذورون ولا تثريب عليهم ، فهو يقول :

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمع ولا تجعل جوابى لن ترى [١]
يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به حبا فحقك أن تموت وتعذرا
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر [٢] أرق من النسيم إذا سرى
فدهشت بين جماله وجلاله وغدا لسان الحال منى مخبرا
عنخذوا ولى اسمعوا وبى اقتدوا وتحدثوا بصبابتى بين الورى

وما دام ابن الفارض ملاوما محبة الله ، فهو لا يحس بغربة أو وحشة فهو يقول :

لم أدر ما غربة الأوطان [٣]وهو معى
وخاطرى أين كنا غير منزعج

---

[١] أى كما قلت لسيدنا موسى عليه السلام لن ترانى ، وابن الفارض يطلب الرؤية التى وعد الله بها عباده المقربين يوم القيامة فى قوله الكريم (وجوه يومئذ ناضرة ٠ إلى ربها ناظرة) ٠

[٢] السر الذى يكوم بين العبد وربه سر خفى لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده وهو من عطاء الله لخاصته من أحبابه وأصفيائه ٠

[٣] يرى المحبون أن المحبة وطن لهم تجتمع فيه قلوبهم على الله عز وجل ،فإذا =

الحلاج مع ربه :

للشهيد الحلاج رضى الله عنه فى تفسير آيات الله قدم صوفية راسخة ، وفى تفسير قوله تعالى (فذلكم الله ربكم الحق) يقول : هو المقصود بالعبادات المصعود إليه بالطاعات ، لا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه .

وفى تفسير قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) يقول : ما فارق الأكوان الحق ولا قارنها ، كيف يفارقها وهو موجدها وحافظها ، وكيف يقارن الحادث بالقديم ؟ قوام الكل وهو بائن عن الكل .

وكلامه المتقدم يشرح لنا معنى ما يخاطب به ربه شعراً :

أنت بين الشغاف والقلب تجرى ... مثل جرى الدموع من أجفان

وتحل الضمير جوف فؤادى ... كحلول الأرواح فى الأبدان

ليس من ساكن تحرك إلا ... أنت حركته خفى المكان

الحلاج وملامة الناس :

والمحبون لا يعبأون بملامة الناس ، لأنهم فى شغل بالخالق عن الخلائق ، لذلك ترى الحلاج يقول :

= كان القلب مجموعا على الله كان فى وطن المحبة فلا يشعر بغربة ولا وحشة ، وقد أنشد قوال بين يد سيدى الحارث المحاسبى :

أنا فى الغربة أبكى ... ما بكت عين غريب

لم أكن يوم خروجى ... من بلادى بمصيب

عجبا لى ولتركى ... وطنا فيه حبيبى

فقام يتواجد ويبكى حتى رحمه كل من رآه

.

يا لائمى فى هواه كم تلوم فلو عاينت منه الذى عاينت لم تلم

شاعر الأولياء والملامة :

أما شاعر الأولياء فيدعو لأئمه أن يجرب العشق ليرى أن اللوم لا يزيد المحب إلا افتناناً بحبيبه فيقول :

اعذرونى أو أعذلونى فإنى لست أخشى الملام من حيث كانا

إنما اللوم فى المحبة عندى لا يزيد المحب إلا افتنانا

جرب الحب مثلما جرب العاشق تلق الملام يزكى هوانا

ويقول ابن الرومى فى المعنى المتقدم :

فدع المحب من الملامة إنها بئس الدواء لموجع مقلاق

لا تطفئن جوى بلوم إنه كالريح يغرى النار بالإحراق

أمر عجيب :

ومن عجيب ما وقع معى أنى كنت تعرضت للمقارنة بين قول الحلاج المتقدم وقول شاعر الأولياء فى مقال لى نشرته مجلة منبر الإسلام الغراء بعنوان الصوفية فى إلهامهم من نحو عامين ، وقلت تعقيباً على شعره السابق : وإنى أقول فى غير تعصب إن كلام أستاذى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل أقوى فى دفع الملامة من كلام الشهيد الحلاج ، وإن كان الشهيد يقول بعد بيته المتقدم فى روعة صوفية ظاهرة :

للناس حج ولى حج إلى سكنى

تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى

يطوف بالبيت قوم لا بجارحة بالله طافوا [١]فأغناهم عن الحرم

وسافرت حينئذ إلى الحجاز وعدت فإذا بالأستاذ طه عبد العزيز (وهو صديق من العلماء) يخبرنى أنه رأى شاعر الأولياء فى الرؤيا متوضئاً وقادماً من محل الوضوء بالأزهر الشريف ومعه صديق له ، فقابل الأستاذ طه وكأنه عاد طالب علم فى رواق أهل الصعيد ، فسلم على الأستاذ طه وقال له فى لغة عامية :

وبعدين يا طه فى حسن الملطاوى بلديك ، طول عمره يحسن الظن بى ويقول على عقل قال ، على عقل قال ، ويجعل كلامى أعلا من كلام الحلاج ، أنا فين والحلاج فين ، لم يكن بالاستاذ طه قد أطلع على ذلك المقال ، ولا يدرى سر كلام شاعر الأولياء فلما عدت من الحجاز وقص على تلك الرؤيا ، سألته عما إذا كان أطلع على مقال لى فى الموضوع فأخبرنى أن طبيبه منعه من القراءة لتعب يشكوه فى عينيه ، فأخبرته بالمقال ، فتعجب أن يتعقبنى شاعر الأولياء فيما أقول وهو فى برزخه وسبحان من يؤتى ملكه من يشاء ، وما أعجب حياة أهل البرزخ ٠

ذكر الله فى جميع الأحيان :

وما دام شاعر الأولياء لا يعبأ بملامة اللائمين ، فهو يذكر ربه سبحانه فى جميع أحيانه فيقول :

وقفت على نجوى الإله جوانحى لذلك قلبى منزل كله ذكر

---

[١] الطواف بالله هو دوام التعلق به ، كما يقول تعالى فى وصف السادة أهل الصفة من الصحابة : ((يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه)) ويقول ((شاعر الأولياء)) فى ذلك :

قبلتى فى الصلاة ساعة وقت كم مصل بعد الصلاة تلاهى

إنما قبلتى جميع حياتى هى ذات ا لإله لن أنساها

وأخليت قلبى من مناجاة غيره فأصبح طوداً لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا وأسكت هائماً وأنطق إجلالا وما عاقنى سير
ففى صحوتى شوق وفىغفوتى هوى وفى مشيتى علم وفى وقفتى سر

شاعر الأولياء والحجاز :

وكثيراً ما ترنم شاعر ا؟لأولياء بالحجاز ، مشرق الرسالة المحمدية ، ومهبط الوحى السماوى ، ومراح البراق ، ولا عجب فى ذلك فإن محبة رسول الله من محبة الله تعالى ، ومن ذلك قوله :

دع زماناً مضى وعد بى لأرض شغفتنى بنورها المتلالى
بين بيداء روعت ووهاد وذئاب تختال فى إقبال
ونجوم مثل الحباب على الكأس تسامت ، أو كالحلى واللآلى
قيل ماذا تريد من هذه الأر ض أتبغى البقاء فى جمع مال
قلت والله غير أحمد مالى بعد رب العباد من آمال
يا حبيبى رضاك دنيا ودين فهما باتباعكم صحالى

ويقول مناجيا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا جميلا ما مثله من جميل كان للبدر منك فضل الجمال
إنما الكون منك كالصدف أسقطو
طَنْتَه درة تسود الغوالى
أنت سر الحياة بل سيد الكون فيا نفحة من المتعالى
إنما أنت مصدر النور من ربى ومعنى الرضا وباب الوصال

وكذلك يناجيه بقوله :

يا سيدى ولقد غدوت مناجيا عمرى وبت مع الجلال مسامرا

كم من صغير جاء حيك تائبا أضحى يسود من الرجال أكابرا
فإذا نهلت نهلت من نور الهدى وإذا سكرت سكرت علما زاخرا
وإذا غفوت غفوت صبا مغرما وإذا أفقت رأيتـه لى ناظرا
أنا إن أكن جسما بعيدا إنما روحى من النجوى تفيض سرائرا
أرسلتها بفم النسيم شهيـدة وتزف باسمكم السـلام العاطرا
لم أنس حبك ما حييت وإن أمت أجد الغرام على مد منابرا
أنا هائم ومن المحبـة هائج كالريح قد أزجى السحاب الماطرا
فأصب فى الإحساس مهج الورى حكما تقلبها القلوب مزاهرا
يا هذه الأيام إنى ليس لـى إلا رسـول الله سرا ظاهرا
أنا كـل شىء فى الحياة تركته ووقفت نفسى للنبى مثابرا
والوقف لا يشرى ولـيس يباع فى حال يدوم إلى القيامة حاضرا
أنا باسمكم وإلى اسمكم ولو سمكم فى رسمكم قلبى على الشعرى سرى
قل لـى عليك صلاتنا وسلامنا حتى أعود على المحبة شاكرا

سيدى ابن عربى والمدح

ويمـدح الشـيخ الاكبـر سـيدى محيـى الـدين بـن عربـى ، رضـى الله عنـه ، مولانـا رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكر فضله فى إيمانه بالله تعالى فيقول :

مدحت المصطفى فمدحت نفسى ولى قسم وما جاوزت قسمى
فأعمالى ترد على منه ولو أرمى بعينى منه أرمى
وقد عصم الإله به وجـودى فلو أُرْمَى بسهم ليس يصمى
وهـى رحمة منه توالت لدى بها يعود على سهمى
وظنى لم يزل ظنا جميلا فإن الظن منه عين علمى

وكـــأن الشـــيخ الأكبـــر يفصـــح بألفاظـــه عمـــا يقولـــه شـــاعر ا لأوليـــاء فـــى الأبيات السابقة :

وإذا نهلت نهلت من نور الهدى إذ سكرت سكرت علما زاخرا

محبة آل البيت الكرام :

ولمـــا كانـــت محبـــة آل البيـــت الكـــرام مـــن محبـــة مولانـــا رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسـلم ، فقـد تغنـى شـاعر الأوليـاء بمـدحهم ومحبـتهم فـى شـعر يسـيل عذوبـة ورقـة ومـن ذلـك قولـه حـين طـاب إليـه احـد الحاضـرين ان يأتيـه بأبيـات علـى وزن البيـت الآتى وقافيته :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا

فإن هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

فأجاب رضى الله عنه :

(بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا)

بهم نلت كـل الخير دنياى والأخرى

لقد غرسونى من الزهور رياضهم فطابت حياتى من مكارمهم زهرا إذا

قيل لى تهواهمو قلت ملكهم ووقف يمين لا يباع ولا يشرى

تساموا على كل الأنام فضائلا وقد بين القرآن أوصافهم طهرا

وعينا من القرآن سورة هل أتى صفا سعيهم لله واستوجب الشكرا فلو

أن جود العالمين أقيسه على جودهم يوما لما مثل العشرا

جداول من بحر النبى محمد فما مثلها تلقى جداول أو بحرا

إذا عَشِيت عينى فَطَىَّ جوانحى عيون ترينى سر أنوارهم جهرا فإن

كان ذنبى أن قلبى يحبهم فإن ذنوبى لن تلم بها حصرا

وما أحسن الدنيا على صدق ودهم وما أحسن الأخرى لتابعهم ذخرا
وها انا مشتاق إليهم وسائر على حبهم أنفقت سعيى والعمرا
أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى ولى لذة فى مدحهم تثلج الصدرا
إذا نظرونى زال من قلبى الأسى وإن منحونى عشت أغترف الخيرا على
بابهم أسمو سمـــو أولى النهى
(فإن هم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا)

وقد طلب إليه بعضهم أن يشطر له البيت الآتى :

آل النبى تزايدت لوعاتى إن المقام سما عن الكلمات

فقال فورا :

(آل النبى تزايدت لوعاتى) وعلى محبتكم وقفت حياتى
عجزالبيان فما أُوَفىَّ وصفكم (إن المقام سما عن الكلمات)

فطلب إليه تشطيرا آخر للبيت فقال رضى الله عنه :

(آل النبى تزايدت لوعاتى) أنفقت فى شوقى لكم ساعاتى
منوا على فما اللسان بمسعفى (إن المقام سما عن الكلمات)

فطلب تشطيرا ثالثا فقال رضى الله عنه :

(آل النبى تزايدت لوعاتى) أنتم من الدنيا ضياء حياتى
ولكم كتمت من الجلال مقالتى (إن المقام سما عن الكلمات)

فطلب منه أن يخمس البيت فقال على الفور :

أنتم منای ودعوتى بصلاتى ولقد غنيت بكم فنلت صلاتى
أفنيت عمرى فىالهوى وحياتى آل النبـــى تزايدت لوعانى
إن المقام سما عن الكلمات

وقد طلب إليه تخميس البيت الآتى :

هات النجوم أصغ بها أبياتى إن المقام سما عن الكلمات

فقال

آل النبى تزايدت لوعاتى لا تحرمونى الوصل قبل مماتى

يا طالبا وصفى لهم بالذات هات النجوم أصغ بها أبياتى

إن المقام سما عن الكلمات

وقد طلب إليه أن يأتى بأبيات على وزن البيت التالى وقافيته :

ومهما ألام على حبهم فإنى أحب بنى فاطمة

فقال فورا :

ومهما ألام على حبهم فلست الفتى خائف اللائمه

فروحى على بابهم ترتمى ونفسى بأعتابهم خادمة

إذا مس نفسى فتورالمعاصى بذكرهم أصبحت هائمة

فيا عاذرى ثم يا عاذلى سواء رضاك أو اللائمة

فقل ما تشاء وكن ما تشاء فإنى أحب بنى فاطمه

ابن عربى وحبه آل البيت :

ويقول الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى فى آل البيت الأطهار رضى الله عنهم :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا

فما اختار خير الخير منا جزاءه

على هديه إلا المودة فى القربى

وهو فى قوله المتقدم يشير إلى الآية الكريمة : (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى * ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور) ، واقترف الحسنة فى الآية هو محبة آل البيت الأطهار عليهم رضوان الله ، وقد ورد فى الحديث الشريف : (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى) صلوات الله على سيدى رسول الله وآله وأصحابه ومن والاهم بإحسان يوم الدين .

تعريف بشاعر الأولياء

بحر التجلى وشاعر الأولياء

أما وقد ذقت أيها القارىء الكريم قسطا كافيا من ذلك الشعر الصوفى العبقرى الذى قاله شاعر الأولياء ارتجالا لوقته ، دون روية أو إعمال فكر ، وتعجبت كما تعجبنا من تلك الآية الكبرى التى رأيناها فى ذلك القطب الصالح ، فاعلم أن ما قرأته فى هذه العجالة التى بين يديك ، إن هى إلا مئات من آلاف الأبيات التى نقلناها [1] عنه ، وتلك الآلاف بدورها قطرات يسيرة من ملايين الأبيات التى شدا بها وأرشد أستاذنا الشاعر الموهوب قرابة أربعين عاما ، بلسان أهل الحق والحقيقة ، أولئك الذين عملوا بما علموا ، فسقاهم الله من بحر التجلى وورثهم علم ما لم يعلموا ، وأغناهم بعلم الوراثة عن علم الدراسة ، فغرفوا منه وارتووا حتى سكروا وأسكروا ، وحق لشاعر الأولياء إذن أن يقول فيما مر عليك من شعره :

بحر التجلى كله حكمة — كم تسكر الرواح من من عذبه
دع ما يقول الناس من علمهم — ما دمت تلقى العلم من سيبه

أو أن يقول :

علومى فى الورى نفحات ربى — فما بلغوا مذاقى أو شمولى
ولى من مشرق الإيمان علم — سموت به على كل الفحول

---

[1] وقد طبعت وشرحت فى ديوان السمو الروحى فى الأدب الصوفى لأستاذنا العارف بالله السيد / أحمد عبد المنعم الحلوانى الذى نشرته مطبعة الحلبى فى ١٩٤٩ .

أو يقول :

وإنى إذا حدثت قومى فإنما أحدثهم علما يقال له شعر
ولم أك من أهل الخيال وإنما علوم الهدى من حكمتى فيضها بحر
ولست الذى فى كل واد مرددا ولكن وادينا المحبة والذكر

أو يقول :

أسامر ليلى خاليا بشهوده وقلبى بنور الحق فاضت مناهله
وذو الوجد لا يغفو عن الحب لحظة به عاش حتى لو أصيبت مقاتله
رضيت به حتى دخلت رياضه وأوراق من زهر المعارف نائله
وهل يدرك الآيات إلا رجالها وهل يدرك الوجدان إلا مزاوله
سألت فوفانى رجوت فزادنى وإن كريم الكف ما خاب سائله
أحن على ذل وأهوى على هدى وأسرى على علم بقلبى أواصله

وقد كان الناس يتزاحمون على مجلسه ليروا آية الله فيه فيطلبون إليه التشطير أو التخسيس ،فيجيبهم من فوره بأرق الشعر وأعذبه من مثل :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعدا

فخمسه قائلا :

دعونا إلى الميراث علما بشرعنا وقالوا لنا ما حال نسل بناتنا
فقلت لهم هيا اسمعوا حكم شرعنا بنونا بنو أبنائنا وبناتنا
بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وكذلك طلبوا إليه أن يشطر البيتين :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
وارحموا صبا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

فقال :

اذكرونا مثل ذاكرنا لكم إن ذكراكم تزيد الفرحا
وأعيدوها علينا أبدا رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم نسى الكون فنال المنحا
وإذا ما يمم الحى دجى شرب الدمع وعاف القدحا

ويكفيك ذلك لأن تعرف أنه ليس بشاعر أرضى ، بل هو شاعر سماوى ، سما فكان السماء ، وصفا فكان الصفاء ، وشوق بشعره إلى العالم الأسنى فى دأب دائم ، حتى نفذ قوله إلى الآذان الصماء ، بل إلى القلوب العمياء ، فتحركت بعد أن كانت ساكنة ، واشتعلت بعد أن كانت خامدة ، فجاهدت فى الله حق جهاده فى همة علياء وعزم مؤكد ، فاستنارت بنور الإيمان ، وذاقت حلاوة اليقين ، فرأت ما رأت ، ودرت ما درت ، ومن درى سلك ، وكان فى خواصه كالملك ، مسبحا ليله ونهاره فى سره وجهره ، لا يعصى الله ما أمره ، ولا ينى فى ذكره .

وهكذا كان شاعر الأولياء ساعيا فى مرضاة ربه ، فى همة خارقة لا يقوى عليها إلا إهل العناية ، الذين اختصهم الله برحمته ، واصطفاهم لساحته ، فعاشوا بأبدانهم فى الأرض وبأرواحهم حول العرش وفوق السموات العلى ، وهذا ما يشير إليه شاعر الأولياء فى قوله :

نعم نحن من أبناء آدم عنصرا ولكنا فوق السموات نكرم
إذا كانت الجسام تروى من الثرى
فإنا بنور الله تروى وتنعم
أفاض على الحق من بحر نوره فقلبى بغير الحق لا يتكلم
ولولا حجاب الغفلة اليوم فوقنا تفانى على نور المشاهد مغرم

رجال الله :

فلو كشف لعامة الناس من الحجاب ما كشف لشاعر الأولياء لتفانوا على نور المشاهد كما تفانى هو وأمثاله القلائل ، ولكن كيف يلحق العامة بالخاصة الذين خصتهم العناية وأظلتهم الرعاية ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ٠

وصدق الإمام جلال الدين الرومى رضى الله عنه حين قال بالفارسية ما ترجمه إلى العربية صديقى العلامة الشيخ شعلان :
سبحان من قدر فهدى ، ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، إن إلهام النحل هو الشهد ، وإلهام حشرة القز الحرير ، وإلهام البلبل أغانى السحر ، وإلهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض :

صدقوهم هم مصابيح الدجى أكرموهم هم مفاتيح الرجا
اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون .

العناية الالهية والعمل :

ومع إيماننا بالعناية الإلهية التى يحيط بها سبحانه رجال الله من خواصه ، مصداقا لقوله تعالى (يختص برحمته من يشاء) تعبدنا الله تعالى بالعمل والسعى فى طلب الآخرة فقال تعالى مثلا (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) ، كما أنه سبحانه شجعنا على العمل فى مرضاته حتى لا نتذرع فى نبذ العمل بالعناية ، فقال تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) وأهل الإحسان هم الذين يجدون فى عبادة الله ، كأنهم يرون الله جلا وعلا ، فإن لم يروه فإنه يراهم . ولا تنس أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قام ليله حتى تورمت قدماه ، فلم يكتف بعلمه على غزارته ، بل كان علمه الربانى حافزا لبذله

غايـة الجهـد فـى مرضـاة ربـه ، وهـو الأسـوة الحسـنة لمـن كـان يرجـو الله واليـوم الآخـر وذكر الله كثيرا .

شاعر الأولياء والسهر :

ومـن هنـا جـد شـاعر الأوليـاء فـى العمـل علـى مرضـاة ربـه ، فسـهر الليـل كلـه ، وتجافى جنبه عن مضجعه ، وعلل سهره والناس نيام فقال :

إذا سهرت فما أسهرت عن ملل لكنه الحب يدعونى وأشهده
ومذ تغزلت فى ربى وما ألفت روحى سواه تجافى الجفن مرقده

ولا تعجب أن همته هكذا وهو من الخواص الذين وصفهم هو بقوله :

عبـاد ولكن علا قدرهم تبارك من لهم قد خلق
لهم همم كالجبـال الرواسى وهم عند ربك نور الغسق
ونارهمو فى النعيم المقيم فيا عجبا جنـة فى حُرق

وحـين دعتـه المحبـة الإلهيـة لـذلك السـهر الخـارق ، لـم يعبـأ بـاعتراض عليـه فيـه : وقـد جادلـه بعـض القـوم فـى حضـورى وقـالوا لـه أن تعـالى قـال لمولانـا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا) فكيف تسـهر الليـل كلـه ، فأجـاب اقـرءوا مـا قـال الله بعـد ذلـك (أو زد عليـه ورتـل القـرآن ترتيلا) ثم أضاف قائلا والزيادة لم تحدد بحد معين .

وكـان رضـى الله عنـه يعـوض سـهر الليـل بنـوم بضـع سـاعات مـن النهـار بعـد أن يصـلى الضـحى ، ولا أذكـر أو يـذكر غيـرى أنـه تخلـف ليلـة واحـدة مـن ليـالى الأسـبوع الكاملـة عـن مجـالس الـدعوة إلـى الله ، فـى حـين كانـت لـه أسـرة وبنـون وبنـات ، ولكنه آثره ربه بأكثر وقته وقام على أسرته بأقله .

وقد أحب شاعر الأولياء ربه حتى اتهموه بالجنون فلم يحفل بنسبة الجنون إليه فقال على سبيل الرمز الصوفى :

لما علقت بليلى فى مشاهدتى قالوا بأنك يا مسكين مجنون
أجبتهم لا تلومونى عى حرقى فكلما إن تعشقنا مجانين

كرم الساقى :

وحين شرب شاعر الأولياء من شراب المحبين المحبوبين ، لم يضن به على تلاميذه وإخوانه المؤمنين ، بل علمهم مما علمه الله ، اطمئنانا إلى كرم الساقى وجوده سبحانه تعالى فقال رضى الله عنه :

وعلمت غيرى ما أفدت من الهدى فلم يبق ذو فهم لدى على طمس

وكأنه فيما علمنا من هدى الله الذى هداه إليه فأهداه الناس كان يشرح لنا ما قاله الإمام السهروردى المتوفى سنة ٦٢٢هـ على طريقة الرمز بالخمر حين قال رضى الله عنه مخاطبا ربه سبحانه :

لا تسقنى وحدى فما عودتنى أنى أشح بها على جلاس
أنت الكريم ولا يليق تكرما أن يصبر الندماء دون الكأس

شاعر الأولياء والتضمين :

وكان شاعر الأولياء يضمن شعره القرآن الكريم فى روعة كقوله :

يا أيها الناس اعبدوا ربكم وأخلصوا لعلكم ترحمون
وإن صدقتم ربكم بينكم نلتم بفضل الله ما تطلبون
وأن كذبتم ربكم بينكم هيهات هيهلات لما توعدون

وقوله :

كل شيء ينتهى فى موته غير سر الله عندى ما نفد
لى خليل كلما أملته جاءنى الفيض إذا سح المدد
كلما قد زاع قلبى قال لى يامعنى قل هو الله أحد

شهادة كبير المحدثين بالأزهر :

وقد اجتمع بشاعر الأولياء واستمع إليه المحدث الكبير المرحوم الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى ، وكان كبير المحدثين بالأزهر الشريف ، فبهره ما رأى من شاعر الأولياء ، كما بهره ما رآه من رسوخه فى علوم الشريعة والحقيقة فقال له ، فيما حدثنى به صديقى الصالح الذى شهد اللقاء السيد / سالم جمعه ، مد الله فى عمره ، وزاده من فضله :

(يا أستاذ لقد طوفت فى البلاد شرقا وغربا ، واجتمعت بكثير من العلماء الأتقياء ، فما رأيت مثلك ، وأشهد بالله أن هذ العطاء الذى عندك لا يعطيه الله إلا للأولياء ، فهنيئا لك ما أعطاك الله)

وتلك الشهادة تذكرنى بشهادة شيخى العارف بالله سيدى (عبد السلام الحلوانى) حين قال لى فيما بينى وبينه ، يا فلان : الشيخ على من أساطين الطريق .

كما أن الشيخ الشنقيطى ، رحمه الله ، أجازه فى رواية الحديث الشريف بعد أن وثق فى روايته ، أقول وأنى فى هذه المناسبة أود أن أثبت ماسمعته من شاعر الأولياء من ثناء على الإمام الترمذى رضى الله عنه فقال لى : لو كان الأمر بيدى لأمرت الأزهر أن يدرس صحيح الإمام الترمذى كما يدرس صحيح الإمام البخارى

بينى وبين شاعر الأولياء :

فإن قدمت العارف بالله سيدى الشيخ على عقل ، رضى الله عنه ، فى هذه

الرسالة على أنه شاعر الأولياء ، فإنما أقدمه للقارىء الكريم بما اشتهر به بين الناس من أنه كان يقول الشعر إلهاما لوقته وارتجالا ، وإلا فقد كان طيب الله ثراه بحرا فياضا فى العلوم الشرعية ، وشهدت بنفسى أكابر العلماء يجالسونه ليتعلموا منه لا ليتكلموا بين يديه ، وكانوا لا يخفون علينا إعجابهم بما يسمعون منه ،

فضله على :

وإنى لأذكر فضله على فى ثقافتى الدينية ،وأسأل الله ان يكافئه عنى ، لأنى عاجز عن مكافأته ، فقد تخرجت فى كلية التجارة جاهلا بالعلوم الدينية كسائر المتعلمين المدنيين ، فلما أسعدتنى العناية بصحبته ، بقصة عجيبة ، زج بى رضى الله عنه فى بحار العلم ، فيسر الله لى تحصيله ، واعتبرت ذلك من آيات الله التى يبديها على أيدى أوليائه الكرام .

كيف التقيت به :

أما قصة لقائى بسيدى الشيخ على ومن بعده بسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى فهى عجيبة حقا ، ولم تكن إلا بعناية ربانية ، وقد خاطبت سيدى عبد السلام الحلوانى مرة فى ذكرى مولده متمثلا بقول أبى العلاء :

ولو لم ألق غيرك فى اغترابى لكان لقاءك الحظ الجزيلا

وذلك العجب الذى أبديه فى صلتى بالشيخين إنما لأن صلتى بهما إنما جاءت مصادفة من غير ترتيب إنسانى ، ولا تكون المصادفة السعيدة إلا بتدبير إلهى يعجز عنه الإنسان ، فقد قصدت زيارة صديق لى هو الأستاذ (حسين سيف) (مفتش وزارة التربية السابق) حين كان طالبا بدار العلوم وكنت أنا طالبا بكلية التجارة ، فلم أجده يومها فى مسكنه ، وإنما قابلنى صاحب المنزل الذى

يسكن فيه ، وأخبرنى أنه ليس موجودا ، فرجوته أن يبلغه سلامى وسؤالى ، فأصر ألا أنصرف دون أن أشرب التحية وحاولت الاعتذار فلم يقبل وأصر على ضيافتى ، فدخلت مسكنه فى إعجاب بكرمه وسمو أخلاقه ، لأنه أكرمنى على غير معرفة سابقة بيننا .

فتعارفنا ، وإذا به من علماء الأزهر، وهو فضيلة الشيخ عبد الوهاب محمد العزيزى ، من قرية أبى عزيز مركز مطاى ، محافظة المنيا ، وهو الآن واعظ المودة ، بنى مزار المنيا ، مد الله فى عمره ، وقد تردد الشيخ على زيارتى وكنت أسكن قريبا من بيته ، وألف الله بيننا لحكمة يعلمها ، وإذا بى ألمح فى يده مسبحه ، ويدور الحديث بينى وبينه على الذكر والتسبيح والطرق الصوفية ، وإذا به يصف لى شاعر الأولياء وإلهامه الربانى فظننت أنه ضرب من المبالغة التى اعتادها الناس فى وصف رجال الطرق ، ولكن ثقتى فى دين الصديق العالم جعلتنى أفكر فى أن أقطع الشك باليقين ، فقلت له هل أستطيع أن أراه وأسمعه بنفسى ، قال لى تستطيع ذلك فى مولد السيدة زينب ، وسيقام الاحتفال به عما قليل .

أخذت أعد الأيام حرصا على الالتقاء بذلك الشاعر الصالح الموهوب ، خاصة وأنى كنت تخرجت فى كلية التجارة وعملت موظفا بوزارة المالية (الخزانة الآن) وفكرت أن أربى نفسى تربية دينية تنفعنى فى طريق الآخرة ، ومع أنى كنت أحافظ على فرائضى ، لكنى كنت أشعر بجهلى فى العلوم الشرعية التى تلزم المؤمن الراغب فى مرضاة ربه على النهج الصحيح الذى يسلكه أهل الكتاب والسنة والجماعة .

وقد رويت فى مقدمة الكتاب ما كان من التقائى بالشيخ أول مرة ، وما كان منه حين شد على يدى دون سائر المسلمين عليه ، وما قلته فى نفسى من أنه سيكون لى به شأن ، وهو ما كان بفضل الله وإحسانه .

شاعر الأولياء وعلوم الدين :

قلت فى مقدمة الكتاب إنى حين سمعت شعر شاعر الأولياء لأول مرة أحسست بدبيب كدبيب النمل فى جسدى ، وهو ما يدل على أثر روحه القوى فى السامعين فأحببت أن أسمعه فى علوم الدين ، فمن حسن حظى سأله سائل فى تفسير قول الله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت إيمانهم فهم فيه سواء افبنعمة الله يجحدون) فتدفق فى تفسيرها وإنساب فى إلهامه كما ينساب النهر العذب الفرات فى مجراه حتى استغرق ساعتين ، فحمدت الله تعالى أن كشف لى فيه الناحية العلمية ، كما كشف لى الناحية الشعرية ، وقد ترددت على مجلسه فعرفنى بعض تلاميذ سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى الذى سلك شاعر الولياء على يديه الطريقة الخليلية ، فأشاروا على بزيارة سيدى الشيخ عبد السلام ففعلت ولما دخلت عليه لم يقدمنى أحد منهم إليه بل نطق هو رضى الله عنه باسمى وقال : حضرته حسن أفندى كامل فقالوا نعم ، فاستبشرت وسلكت الطريقة الخليلية على يديه فى ثقة به ، وكان ذلك فى سنة ١٩٢٩ .

شاعر الأولياء يعلمنى :

وإن كنت أيها القارىء العزيز قد أعجبت مما كان بينى وبين شاعر الأولياء فى اللقاء الأول ، فاعجب مما كان منه معى فى العلم بعد أن صحبت سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى فى الطريقة الخليلية لرائدها الأكبر سيدى الحاج محمد أبى خليل رضى الله عن الجميع ، فقد كانت معرفة سيدى الشيخ على مفتاحا لمعرفة سيدى الشيخ عبد السلام ومعرفة سيدى الشيخ عبد السلام مفتاحا لسلوك طريق سيدى الشيخ أبى خليل ، وسبحان المدبر والمقدر . وقد أسعدنى الله فتمتعت بصحبة

سيدى عبد السلام خمسة عشر عاما أعدها أسعد أيام الحياة وصحبت سيدى الشيخ على بعده نحو أربعة أعوام ، وكنت فى صحبتى لهما كالمتمتع بالشمس والقمر ليل نهار . وقد ذهبت يوما لسيدى الشيخ على مستاذنا فى السفر لقضاء أجازة شهر بين والدى وأهلى ، وكنت قد استأذنت قبله سيدى الشيخ عبد السلام ، فإذا بسيدى الشيخ على يفاجئنى ويقول لى : أعط درسا بالأجازة لأهل بلدكم بالمسجد فقلت أى درس تريد ياسيدى ؟ فقال درس حديث نبوى ، قلت حديث نبوى ؟ قال نعم ، قلت ياسيدى وهل لى هذا الشرف وأنا لست مهيأ له ، فقال لى بالعامية : إنت مالك فعلمت أنه أمر صوفى من ذلك الولى فقلت سمعا وطاعة ، ولما لم تكن لدى أية مراجع للحديث ، فقد طلبت من صديقى المرحوم الشيخ عوض نصير ، وكان ومن علماء الأزهر ، أن يوافينى ببعض أحاديث فى خطاب يبعث به إلى بالبريد ، فاستجاب رحمة الله عليه ، ووافانى بأربعين حديثا بخط يده ، حفظتها عن ظهر قلب ، وكانت موضع الدرس بالأجازة ، فكانت هذه أولى بركات شاعر الأولياء على فى العلم .

وفى العام التالى (١٩٣٢) أمرنى ، رضى الله عنه ، أن أدرس فقه الإمام مالك ، ولم أكن أعلم فيه شيئا ، ونصحنى أن أقرأ لهم كتاب الشرح الصغير للامام الدردير رضى الله عنه ففعلت ، ولكنى عندما عدت من الأجازة ترددت على بيت الشيخ وتلقيت عنه المذهب ، كما تلقيت عنه الحديث الشريف ، وقراءة حفص ، وكنت أمزح معه وأقول له : ما رأيت أحدا قبلك يعين مدرسا يعلم الناس قبل أن يتعلم . فكان رضى الله عنه يضحك ويدعو لى

وحلا لى طلب العلم ببركة الشيخ ، وكنت أجمع مشكلاته العويصة يوميا والتقى بالشيخ فيفضها لى واحدة واحدة من كنزه المخبوء حين أسهر معه بالليل ،

وكان شيخى وشيخه العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى نور الله ضريحه يبارك التصاقى بتلميذه النابغة شاعر الأولياء ، وذات مرة دخلت على سيدى الحلوانى فى شبرا ، فإذا به يقول لى اجلس وأسمعنى قرآنا لأرى ماذا علمك الشيخ على ، فقرأت عليه بعض أرباع من سورة البقرة ، فسكت ، واعتبرت أنه مرتاح للقراءة جزاهما الله عنى خيرا كثيرا ، فقد اعتنيا بتربيتى وعلمانى حتى صرت معلما ومؤلفا فى الفقه والتصوف وارشدانى وخلفانى حتى صرت خليفة ومرشدا وقد دعوا لى حتى سعدت بالدعاء ، ورضيا عنى فادخرت رضاءهما ليوم اللقاء ، وصدق القائل :

ومن عاشر النفس الزكية لم يزل يزيد بها حسنا على القرب والبعد

مولد شاعر الأولياء :

قال أستاذنا العارف بالله السيد احمد عبد المنعم الحلوانى أكبر أبناء سيدى عبد السلام الحلوانى وخليفته من بعده ، فى كتابه السمو الروحى فى الأدب الصوفى إن شاعر الأولياء ولد من أسرة عريقة الحسب والنسب ، كلها طيب من طيب ببلدة بساط مركز طلخا محافظة الغربية وذلك فى سنة ١٨٩٤ م

نشأته :

ويقول إن بصره كف بعد ميلاده فوهبه أبوه للقرأن والدين ، فحفظ القرآن الكريم صغيرا ، كما حفظ بعض متون القراءات .

صلة شيخه :

وقد سألت بنفسى شاعر الوليا عن كيفية اتصاله بشيخه العارف بالله سيدى عبد السلام الحلوانى ، رضى الله عنهما ، وكان خليفة بارزا من خلفاء قطب

زمانه ومجدد قرنه القطب الكبير سيدى الشيخ محمد أبى خليل ، صاحب الطريقة الخليلية ، الذى اتفق أهل زمانه على صدارته فى المعرفة والولاية ، فقال لى شاعر الولياء :

كنت فى سن السابعة عشرة من عمرى ، وكان بعض قومى فى قريتنا بساط قد تعرفوا إلى سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، وكان عمله فى قرية دميرة مركز طلخا وهى تبعد عن بساط ببضع كيلو مترات ومدحوا لى صلاحه وتقواه وبركته ، وذات ليلة طلبوا إلى أن أصحبهم لأجتمع به ، قال فترددت وأطلت لسانى عليه وعلى شيخه حتى قلت إنى على استعداد لتربية كل منهما ، ظنا منى أنهما كسائر المترددين على القرى من اهل الطرق الذين لا يعلمون شيئا فى أمور دينهم ويتخذون الطرق الصوفية حرفة وصناعة كسبا للمادة .

قال : ولكنى تحت إلحاح قومى جهزت مطية وركبتها وذهبت معهم إلى دميرة ، فبدأت بالمسجد لنصلى ، وبينما أنا منتظر دورى عند بيت الخلاء ، إذا برجل من تلاميذ الشيخ عبد السلام يكاشفنى بأمر سرا بينى وبين أخى الأكبر الشيخ حسنين (وكان من كبار الصالحين رحمه الله) وذلك أنى طلبت منه ، باعتباره كان ولى أمرى بعد موت أبى ، أن يرسلنى إلى القاهرة لأتلقى فيها القراءات ، فاستمهلنى حتى تتيسر الموارد المالية ، قال فألححت وشددت ، فاستمهلنى أخى مرة أخرى ، قال : وإذا ذلك التلميذ يقول لى كشفا : يا أستاذ كن لينا مع أخيك ولا تصر على إرسالك لمصر هذا العام حتى يوسع الله عليكم كما قال أخوك .
قال فتعجبت وهزنى كشفه ، وقلت فى نفسى : إذا كان هذا حال تلميذ الشيخ عبد السلام فكيف بالشيخ ذاته .
قال وبعد الصلاة ذهبنا إلى منزل سيدى الحلوانى وحضرنا مجلس الذكر ،

وقرأت بالمجلس ما تيسر من القرآن ، فلما انتهى المجلس وأراد قومى الانصراف وأستاذنوا الشيخ ، فأجابهم وقال لهم : اتركوا لنا الشيخ على عقل ، وسآتى به إليكم فى بساط .

ثم قال : فبقيت ، ولما عاد قومى إلى أهلى من غيرى عاتبوهم ، وجاء أخى الشيخ حسنين إلى دميرة مرة بعد مرة ليعود بى إلى بساط ، فكان سيدى الحلوانى يستمهله وفى أثناء إقامتى إذن لى سيدى عبد السلام باتباع الطريقة الخليلية وذكر الأسماء الحسنى المتبعة فيها ، وقال : فامتثلت واشتد تعلقى بسيدى عبد السلام حتى إنى حين عدت إلى بلدتى لم يقر لى قرار حتى رجعت إلى الشيخ فى دميرة .
قال : وبعد أن مضى أربعون يوما من سلوكى وقفت أنادى فى السحر على المئذنة منبها إلى صلاة الصبح ، فالهمنى الله كلاما لا عهد لى به ، فانشدته واستحسنه الناس حين نزلت إلى المسجد ، قال : فكتمت الأمر عنهم وأسررته لسيدى الشيخ عبد السلام فطلب أن أتكلم بمثله فتكلمت بجديد ، فقال لى أبشر هذه بداية فتح وسيزداد إن شاء الله إلهامك وعلمك .

قال : ولما لحظ الشيخ انى لا أحسن النحو صحبنى إلى شيخنا الأكبر أبى خليل بالزقازيق ، وقدمنى إليه قائلا : هذا واحد من إخواننا فى الله ، فتح الله عليه بإلهام جميل إلا أنه لا يحسن النحو لأنه لم يتعلم ، قال : فأمر سيدى الشيخ ابو خليل بكرسى واجلسنى أمامه ربع ساعة وهو صامت لا يتكلم ، ثم قال لى بالعامية : قوم ما عدتش تلحن ، قال : فتقوم لسانى كأنى أخذت النحو عن سيبويه أو الكسائى ، وسبحان الله الذى قال فى اوليائه واحبابه : (لهم ما يشاءون عند ربهم) .

سيدى الشيخ أبو خليل :

ولا يأخذك العجب أيها القارئ العزيز من تلك الكرامة فإن سيدى القطب أبا خليل كان سلطان وقته ومجدد قرنه ، وإليك بعض ما وصفه به فى كتاب السيرة الخليلية خليفته سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، الذى تربى على على يديه كما تربى كملة الرجال ، على يد كبار الأقطاب ، فقد قال طيب الله ثراهما :

(فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ظهرقطب هذا العصر ، الغوث العامل ، سلطان الذاكرين ، وتاج العارفين ، وقدوة العاملين ، وحبل الواصلين ، والشمس التى أشرقت على القلوب فانتعشت ، وبسط عليها شعاع الإخلاص فانبسطت ، وأمطر عليها غيث الرحمة فربت ، وبذر فيها بذور المعرفة فأنبتت ، وسقاها من ماء إيمانه فنمت ، ولا حظها بروح المناجاة فأينعت وتعهدها من عبث الشياطين وتعدى المفسدين فحفظت حتى أثمرت ، وعرفت مولاها وخالقها سبحانه وتعالى معرفة حقيقية فابتهجت ، ودبت فيها روح الحياة الطيبة فألهمت ، وأعطاها معطى النعم علماً من لدنه خالصاً من شوائب الأغيار ، فطهرت من رجس الظهور ومن نفثات الشياطين ، فعملت بما علمت ، وسارت بسير أهل الحقيقة على ناموس الشريعة فسلكت ، وظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، وقامت على ذكر الله فخشعت (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) فآمنوا به إيماناً سلك بهم إلى معرفة نفوسهم ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

(وذلك هو الأستاذ الجليل والشيخ العظيم الذي ليس له مثيل سيدى وأستاذى وقدوتى إلى الله تعالى سيدى الشيخ محمد أبو خليل رضى الله عنه وأرضاه) .

وقد قال فى وصفه أخونا المرحوم الشيخ عبد البارى الشرقاوى وكان من علماء

الأزهر الشريف :

إنما الشيخ كالسماء مقاما يحسب المرء أفقها منتهاها
فيراها محدودة بحدود لو أتاها لما رآها وتاها
ورأى فوقه السماء كما كانت وبانت له حدود سواها
من ير الشيخ فى علو مقام وجلال وهيبة يلقاها
لم ير العارف الولى ولكن كرة العالم العظيم رآها

وقد لقى سيدى أبو خليل ربه راضياً مرضياً فى ٢٩ يونيه ١٩٢٠ ، ومقامه ملحق بمسجده الكبير بالزقازيق ٠

سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى :

كان شيخه سيدى أبو خليل رضى الله عنه يقول له حيث يلقاه ويرحب به :

(أهلا بالولى الكامل) ، وقد قال له على ملإ من الناس : والله العظيم والله العظيم أنت قطب أنت قطب ، وقد قلت في بعض ما وصفته به فى كتابى (المربى) المطبوع فى سنة ١٩٤٧ ، والذى ألفته فى سيرته العاطرة بعد انتقاله إلى رضوان الله تعالى فى ١٠ أكتوبر ١٩٤٤ :

(كان رضى الله عنه عالماً عاملا، حليما كريماً ، راجح العقل ، جلى الفكرة ، عذب اللسان ، ثابت الجنان ، سليم الوجدان ، حاضر البديهة ، لطيف النكتة ، جميل العشرة ، ينصحك إذا إراد بالنظرة ، ويفهمك بالإشارة ، وكان يبدأ أصحابه بالجميل ، ويعفو عنهم فى التقصير ، ويعتب عليهم بحسن التعبير ، وكان إلى تفوقه فى العلوم الدينية ، عليما بشتى الشؤون ، خبيراً بالحياة ، حتى إنك لا تفتح له باب الكلام فى موضوع حتى تراه من أعلم الناس به فتبارك الله أحسن الخالقين ٠

وقلت مناجيا له فى ذلك الكتاب أيضاً :

(أى أستاذى الجليل ، أما ما كنت فيه من فضل فقد أشرت إلى بعضه ، ولا أدعى أنى وصلت إلى عده ، وحسبى أن يكون ما قلت كإشارة الإصبع إلى النجم فى سماه ، فيهتدى بك من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا ٠٠) ٠

ومما قال فى وصفه أخونا المرحوم المتولى قاسم ، وكان من المدرسين الأوائل فى المدارس الثانوية :

كان عذب الروح ، جميل اللقاء ، أنيس المجلس ، حلو الحديث ، قليل الكلام ، كثير الصمت ، فإذا تكلم بَدَّ القائلين ٠

وكان يربى الأرواح بألطف ما يكون من الرفق وحسن التدرج ، فلا يلتوى به القصد ، ولا يعصب عليه المرام ٠

وكان رفع الله درجته يهدى الحائرين ، ويرشد الضالين ، بحديثه الذى استوفى حظه من إقناع العقول واستمالة القلوب ، وبنظرته المؤدبة ذات التأثير العجيب ، وبنور الإخلاص الذى يشع من جبينه ، وتكاد تلمسه فى نبرات صوته ، وبالقدوة الحسنة فى أفعاله ، وبحسن السمت فى جميع أحواله ، لا يغضب ولايصخب ولا يضجر ، ولا يعتب ، بل هو واسع الصدر ، كثير الاحتمال ٠

ولقد تناول نفسى برفق وصبر عجيب ، وما زال بها حتى استقادت وزال نفارها ، فاستقامت على الطريقة ، وأشرق عليها نور الحقيقة ٠

شاعر الأولياء يصف شيخيه :

وقد كان شاعر الأولياء يصف بإلهامه رجال سلسلتنا قطباً عن قطب حتى انتهى إلى شيخيه الجليلين ، سيدى الأكبر أبى خليل وسيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى ، فكان فيما قال عنهما ونقلناه :

أراد ربك يحيى القوم فانبعثت آياته بعد إخفاء توالينا

أتى مجددهم يحيى الطريق ومن أعطاه مولاه علماً ثابتاً فينا
أبو خليل أعز الله سيرته محمد من لوجه الله داعينا
شهم أشم قوى الجأش ذو همم مصرف سيد بالحق ينجينا
أعطاه مولاه نوراً لا حدود له فبين العلم والإيمان والدينا
فكان بالفيض والإلهام آيتنا للسالكين وكم أحيا مريدينا
وكان سلطان أهل الذكر أجمعهم
أولاده بقيام الليل رضوانا
وكم له خلفاء قال قائلهم إلى هنا تنتهى روح المجدينا
أجلهم منزلا أعلاهم ثقة أرضاهم خلقاً أزكاهم دينا
أحلاهم منطقاً أقواهم هميماً أوفاهم كرما لا يقبل الهونا
مؤدب ما رأينا فى مجالسه إلا الكمال وسهل إذ يناجينا
عبد السلام وزكى الله تربته بالطيب والمسك وازدانت رياحينا
أخلاقه فى حدود الدين قد رسمت
وكان فى سنة المختار مأمونا
يكفيه فضلا بأن الله سخره للناس يحييهم ديناً ويحيينا

أسفار شاعر الأولياء :

كان شاعر الأولياء كثير الأسفار إلى القرى والحضر فى طول البلاد وعرضها ، لأن طريقة شيخنا الأكبر سيدى أبى خليل رضى الله عنه انتشرت أيما انتشار فى الوجهين القبلى والبحرى فى حياته ، وبعد انتقاله .

وكان شاعر الأولياء البلبل الصداح الذى يشجى المريدين بصوته ، والعالم العامل الذي يفقهم بعلمه على هدى الكتاب والسنة والجماعة ، فكان آية الطريق التى أيد الله بها شيخنا الأكبر ودعوته رضى الله عنه وعن أولاده

صلباً وعهداً ، وقد حج شاعر الأولياء بيت الله مراراً واستمع إليه هنالك كثير من الملوك والأمراء والعلماء الذين وفدوا إلى الحجاز من كل فج عميق ، وعجبوا من أمره ، ودعاه بعضهم إلى زيارة بلادهم ، ولكنه لم يفعل ، وعاد إلى مصر ، رضى الله عنه ٠

مقام شاعر الأولياء بالاسكندرية :

وكان شاعر الأولياء أول مرة يسكن قريته (بساط) مركز طلخا وينتقل منها داعياً إلى الله فى القرى والحضر ثم يعود إليها ، إلا أنه جاء إلى القاهرة وسكنها بعد أن انتقل إليها شيخه سيدى عبد السلام الحلوانى فى سنة ١٩٣١ ، وكان شاعر الأولياء يسكن بالحى الحسينى وكان يصلى الفجر بالمسجد الحسينى ، والعشاء بالمسجد الزينبى ٠

ثم شاء الله أن يعين شاعر الأولياء إماماً بمسجد المواساة بالإسكندرية (أمام مستشفى المواساة) عندما تم بناؤه ، وكان متردداً فى قبول الوظيفة حتى لا يحرم من جوار آل البيت وشيخه بالقاهرة ، ولكن سيدى عبد السلام ألزمه أن يقبل الوظيفة ، وقال معللا إلزامه : يا شيخ على إنى نقلت من الإسكندرية للقاهرة ، فانتقل أنت إلى الإسكندرية لتكون هناك عوناً لإخواننا فى الطاعة ، فنفذ رغبة الشيخ وبقى فى تلك الوظيفة من سنة ١٩٣٤ إلى أن اختاره الله لجواره الكريم فى ٢٤ مارس ١٩٤٨ ، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً حشد الله فيه المشيعين حشداً حتى كانوا كالجراد المنتشر ، ووارى التراب بين أنفاسهم وهم يرددون : الله الله ، ودفن بقرافة المنارة فى مدفن يملكه الصالح المبارك أخونا فى الله السيد (سالم عمر جمعه) مد الله فى عمره وزاده فضلا وتوفيقاً ، ثم بنى له إخواننا فى الله تعالى مقاماً ملحقاً بمسجد كبير أنشأوه ومتعاونين وسموه مسجد الفتح فى حى الفولى (باكوس ، رمل الإسكندرية) ولكن رفاته لم تنقل إلى ذلك المقام ولا زالت ثاوية فى مقبرة المنارة ٠

وإنـى استسـمحه وأسـتعير مـن شـعره لأخاطبـه بـبعض مـا قالـه هـو فـى رثـاء شـيخه سيدى عبد السلام الحلوانى ، حين قال له :

إن مات جسمك إن الموت يكتبه ربى على كل مخلوق يرى فينا
لازال ذكرك حياً لا يموت إلى يوم القيامة والبارى ينادينا
أن أقبلوا تحشروا فى خير منزلة مع النبى شفيع الخلق منجينا
وكلنا فى رياض الحق يجمعنا رب السماء وبالإسعاد يعلينا

والمـوت منتهـى كـل حـى ، وسـبحان ربـى الحالـذى لا يمـوت ، ولكـن شـاعر الأوليـاء لـم يمـت حتـى أحيـا بقولـه وفعلـه وحالـه لأهـل الإيمـان قلوبـاً لا يعلـم عـددها إلا الله تعـالى ، وذلـك هـو الفـوز العظـيم ، وصـدق العـارفون حـين قـالوا : مـن صـحت بدايتـه صحت نهايته .

الطريقة الخليلية

سيدى الشيخ محمد أبو خليل :

هو قطب عصره ومجدد قرنه ، ينتمى إلى الدوحة النبوية المباركة ، وهو حسينى النسب ، أصل أسرته المباركة من اليمن السعيد ، وكان جده الأعلا من حكام الولايات هنالك ، ولما وفدت الأسرة إلى مصر نزلت فى قرية القضابة مركز كفر الزيات غربية ، ثم انتقل شيخنا أبو خليل بأسرته إلى الزقازيق وتربى فى نشأته على الطريقة البيومية وكان شيخه فيها سيدى الشيخ شناوى يوسف رضى الله عنه ، ولما رفعت لسيدى الشيخ أبى خليل أعلام الولاية صارت له طريقته الخاصة وعرفت بالطريقة الخليلية نسبة إلى منشئها رضى الله عنه وقد هنأ سيدى الشناوى سيدى أبا خليل بما أعطاه الله من الولاية وفرح بفلاحه .

وكان سيدى أبو خليل رضى الله عنه يكسب عيشه من تجارة الغلال ، فكان يأكل من كسب يده ، وكان ميسر الرزق من حلال ، وجد فى دينه كما جد فى دنياه ، فأقبل على طاعة ربه بكلياته وجزئياته ، حتى كان يسبح الله ويذكره على حبات الفول أكثر الليل ، ثم جذبته الأنوار القدسية إلى عالم الملكوت ، فخلا للعبادة والذكر فى مقبرة سيدى المبرز القريبة من محطة الزقازيق ، وترك التجارة لأنجاله ، وبعد سنوات جذبه ، رده الله تعالى من الفناء إلى البقاء ليستعمله فى تربية السالكين على منهج الكتاب والسنة والجماعة ، فرأى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن يدعو الخلق إلى الحق فصدع بالأمر واستجاب الناس له وانتفعوا به فاستنارت بصائرهم وعاونوه فى نشر دعوته ابتغاء مرضاة الله ، وأيدهم الله تأييدا له فسرت أنوار طريقته فى طول البلاد وعرضها مسرى النور

فى الظلمات ، وكان ذلك من خوارق الكرامات والآيات ، لأن الاستقامة هى أهم كرامة ، وقد سلك سبيل الاستقامة على يديه وأيدى خلفائه الذين أذن لهم بالإرشاد ألوف من الشباب المثقفين ثقافة مدنية فعلموا ما كانوا يجهلونه من أمور دينهم وعلموا غيرهم مما علمهم الله

وشاع فى أهل الطريقة الخليلية الإلهام الربانى ، فتكلم تلاميذ سيدى الشيخ بالحكمة نظما ونثرا ، وكان أبرزهم فى الشعر شاعر الأولياء وفى النثر سيدى عبد السلام الحلوانى وقد نشرت لى مجلة منبر الإسلام الغراء حتى الآن أربعين مقالا عن نظمهما ونثرهما رضى الله عنهما ولا زال فى سلسلة المقالات بقية لم تنشر رضى عنهما وعن سائر رجال الطريق وتابعيه ، وقد جاء فى الحديث الشريف : (من عمل بما علم ورثة الله علم ما لم يعلم) ٠

طريقة سيدى الشيخ أبى خليل :

تقوم طريقة سيدى الشيخ أبى خليل رضى الله عنه ، على ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا بثلاثة عشر اسما من الأسماء الحسنى ، سبعة منها هى التى أطلق عليها السادة الصوفية السبعة الأصول ، والستة الباقية أختارها سيدى الشيخ بنور الله وتوجيهه ، وسترى بعد هذه المقدمة الأسماء الثلاثة عشر مع معناها الذى يجب أن يراعيه الذاكر وهو يذكرها اسما بعد اسم بحيث يترك الاسم حتى يذكره مائة ألف مرة ، فيذكر كل ليلة منه ما يوفقه الله إليه حتى إذا أكمل المائة ألف انتقل لذكر الاسم الذى يليه ، فإذا فرغ من ذكر جميع الأسماء عاد من بدايتها إلى نهايتها وهكذا ، وليس لسيدى الشيخ أبى خليل أحزاب أو أوراد بل اقتصرت طريقته على الذكر الكثير الذى لا يقيد المريد فيه بحد أدنى أو أعلا فى الليلة الواحدة فباب الاجتهاد فيها مفتوح على أتمه ٠

والسادة الصوفية العارفون حين دلوا المريدين على ذكر الله تعالى ذكرا كثيرا ، إنما دلوهم على باب الوصول مسترشدين فى ذلك بما جاء فى الكتاب والسنة من مثل قوله تعالى (فاذكرونى أذكركم) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) ومثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى (لا يزال لسانك رطبا بذكر الله) حين أجاب من قال له إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشئ أتشبث به ٠

وقد قال العارفون : إن الذكر هو منشور الولاية وسلم الهداية وشجرة المعارف ورأس مال كل عارف ٠

وقد صدقوا فى قولهم هذا ، لأن المقصود بالعبادات والمعاملات أن يكون المؤمن ذاكرا ربه وغير غافل عنه ، بل إن ذكر الله تعالى هو سبب خلقنا ووجودنا ويتميز الخواص عن العوام بدوام ذكر الله ، لأن الخصوصية إنما هى فى البواطن لا فى الظواهر ، ولذلك خدعت الظواهر أهل الجهل والغفلة حين قالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) وما دروا أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذاكرا ربه فى سره وجهره تنفيذا لقوله تعالى (واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) ولقوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) فتبتل وانقطع إلى ربه بذكر أسمائه الحسنى (ولله ا لأسماء الحسنى فادعوه بها) ٠

فإذا أردت أن تكون من الخواص المراعين أنفاسهم مع الله فها هو الحق واضح والطريق لائح والداعى قد أسمع ، ولا محل للتخلف ، وقد جربنا قبلك فرأينا فى طريق الحق الخير كله فإن دعوناك فإنما ندعوك عن تجربة عملية لا عن عبارات قولية وتقوم الطريق على :

أولا- وها هى ذى الأسماء التى يجب أن تذكرها بالشكل المشروح آنفا إذا سلكت الطريقة على يد مرشد من خلفاء سيدى الشيخ رضى الله عنه – علما بأن

العدد لا يحسب إلا ليلا ، لأن العبد يسعى فى النهار على معاشه ، كما أنه يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم فى وقت فراغه نهاراً كما يأتى :

الاسم	المعنى
١- لا إله إلا الله	لا معبود بحق إلا الله
٢- الله	علم على الذات العلية
٣- هو	حاضر لا يغيب
٤- حى	دائم الحياة
٥- واحد	لا ثانى له
٦- عزيز	لا نظير له
٧- ودود	كثير الود لعباده
٨- حق	ثابت لا يتغير
٩- قهار	يقهر ولا يقهر
١٠- قيوم	قائم بأسباب مخلوقاته
١١- وهاب	كثير العطاء
١٢- مهيمن	مطلع على أفعال مخلوقاته
١٣- باسط	يبسط الرزق لمن يشاء من عباده

ثانيا – الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم :

ومما أمر به سيدى الشيخ أبو خليل أن يصلى المريد نهارا على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصيغة : اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما فى علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله ٠

وكذلك تتأكد الصلاة عليه صل الله عليه وسلم عقب كل فريضة ثلاث مرات بالصيغة الآتية :

(اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه عدد

حروف القرآن حرفاً حرفاً ، وعدد كل حرف ألفَ ألفاً ، وعدد صفوف الملائكة صفاً صفاً ، وعدد كل صف ألفاً ألفاً ، وعدد الرمال ذرة ذرة ، وعدد كل ذرة ألف ألف مرة ، عدد ما أحاط به علمك ، وجرى به قلمك ، ونفذ به حكمك فى برك وبحرك وسائر خلقك ، عدد ما أحاط به علمك القديم ، من الواجب والجائز والمستحيل ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه مثل ذلك) ٠

ثالثا- الاستغفار :

ويجب أن يستغفر المريد ربه نهاراً كذلك بأية صيغة وخاصة ما جاءت به السنة النبوية المطهرة مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك مااستطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى ، أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ٠

رابعاً- قراءة الفاتحة :

ويجب قبل الشروع فى الذكر أن يقرأ الفاتحة صله منه وهدية لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولآله وصحبه وسلفه الأمة الصالح جيلا بعد جيل ولرجال الطريقة وأئمتها وخاصة سيدى أحمد البدوى وسيدى على البيومى وسيدى الشيخ أبو خليل وأولاده صلباً وعهداً وخلفائه ، وللخليفة الذى سلك المريد الطريقة على يده ولرجال السند وأهل المدد إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللوالدين وأرباب الحقوق عليه من المسلمين ، ولكافتهم أحياء ومنتقلين كما يقرأ الفاتحة لجميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين والصديقين والأولياء والشهداء والصالحين وأهل الإيمان أجمعين ، وسر هذه الفاتحة أنهاتربط روح المريد بأرواحهم الزكية فتأنس بهم فى ذكر الله تعالى ، لأن الطريق تحتاج للرفقاء المباركين ، وقد قال تعالى ناصحاً لنا (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) ٠

وأخيـــراً لا تـــنس أن شـــيخك ، هـــو أداة أتصـــالك بربـــك ، فكـــن معـــه بـــالأدب والطاعـة ، والهمـة فـى طلـب الله ، لأن الشـيخ كمـا قـال سـيدى ابـن عطـاء الله السـكندرى هـو الـذى يجلـو مـرآة قلبـك حتـى تجلـت فيـه أنـوار ربـك ولا زال محاذيـاً لـك حتـى ألقـاك بين يديه وزج بك فى نور الحضرة وقال لك : ها أنت وربك ٠

اللهـم أذقنـا بـرد الشـراب ، واجمـع قلـوب الأحبـاب علـى البـاب ، وأزل عنـا الغفلـة والحجـاب ، حتـى نـراك بعـين اليقـين فـى ثبـات وتمكـين ، وسـلام علـى المرسـلين والحمـد لله رب العالمين ،

---

[١] – ذو النورين هوسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وقد تزوج السيدة رقية بنت حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فلما ماتت تزوج بأحتها أم كلثوم ، ولم يقع لغيره أن تزوج من ابنتين لرسول كريم فسمى ذا النورين ، وهو من السابقين الأولين ، وجاهد بنفسه وماله في سبيل الله كما هو معروف ٠

[٢] – يقول أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه مشيداً بجهاد الامام كرم الله وجهه ((لولا سيفه ما قام عمود الإسلام)) ٠